العراق

بين انياب السباع

السيد حسين الحسيني

العراق

بين أنياب السباع

عرض موجز لمأساة العراقيين في ظل الحكومات السابقة

تأليف

السيدحسين الحسيني الزرباطي

مكتب ثقافة المقاومة

الجامعة الحرة الإسلامية

(دفتر فرهنگ مقاومت دانشگاه آزاد اسلامي)

هوية الكتاب

اسم الكتاب ..... العراق بين أنياب السباع
المؤلف ..... السيدحسين الحسيني
التنضيد والاخراج ..... السيدعلى الحسيني

اطروحه الجلد: باسم الرسام
الاعدادالفنى: منظمة الانتشارات التابعه لجامعةالحرة الاسلاميه
(سازمان چاپ دانشگاه آزاداسلامى)
الطبع: مكتب ثقافة المقاومةالتابع لجامعة الحرةالاسلاميه
(دفترفرهنگ مقاومت دانشگاه آزاداسلامى)
الطبعة: ..... الاولى
العدد: ١٣٠٠
تعدادالصفحات: ١٦٢

الحقوق المترتبه محفوظ للناشر

العنوان: الجمهوريةالاسلاميه الايرانيه طهران.
مكتب ثقافةالمقاومه التابع لجامعة الحرة الاسلاميه
صندوق البريد: ٤٦٦/١٩٥٨٥
الهاتف: ٨٨٤٨٩١٠

١٩٩٧ م ـ ١٣٧٦ش

بسم الله الرحمن الرحيم

فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

الإهداء

- الى من لا يعرف الكثير عن مأساة العراقيين؛ مشاهد مؤلمة.
- الى من لا يعرف البعث؛ تعريفاً بسيطاً.
- الى من سامه البعث سوء العذاب؛ مشاركة.
- الى ضمير المصلحين؛ لمحة من مأساة أمة.
- الى المحافل الدولية؛ دعوة الى الإنصاف.

مُقَدِّمَة

منذ عهد، وقضية العراق باتت الشغل الشاغل للكثير من الذين هم على صلة من قريب أو بعيد مع أصل القضية وأُصولها، وآثار تعامل الجهات المختلفة معها باتت واضحة المعالم لا يحجبها قناع ولا يواري تضادها شعار، فها هي أصواتهم تسمع من أمواجها المختلفة، وتلك هي فصائلهم تتقدم في خطىً حثيثة ذات اليمين وذات الشمال، والابصار شاخصة صوب السماء منتظرة نصر الله القريب... لكن ماذا بعد كل الذي نراه ونسمعه، وكم يطول انتظار النور بعد هذا العمر من الظلمات.

قالوا ما لا مزيد عليه في مظلومية شعب العراق، وكتبوا للتاريخ بالأرقام فرائد خلت صحف جرائم التاريخ منها، وصرخوا بصوت عبر القرون أسمع الصم جزعاً، ولا جديد في كل ذلك، وأدرك السلف قبل الخلف عقم الضجيج، وأذعن الجميع من غير استثناء أنّ الأرض قد ضاقت والسماء قد منعت، فلا خارج من هذه مغيث ولا نازل من تلك ناصر، والواقع المر يجري في نهر الزمان وكأن مركب السلطان موقوف على طواغيت البشر وشرارهم، ولباس المظلومية حبس على عامة الناس وخيارهم، فنرى كلما هلك فرعون استخلفه آخر، وكلما مات مظلوم ورثه مظلوم عبر القرون التي

أوثقها التاريخ لنا، فمن منّا لم يسمع بما جرى في سالف العصور، ومن ينكر ما نحن فيه، وها نسلي أنفسنا بما كتبه المظلومون ممن سبقونا شعراً ونثراً ، فنلعن الظالمين لعناً وبيلا. ونلوم المظلومين على تقصيرهم أقرع لوم ونقول ليته كان كذا أو كنا....

انها السنة المتوارثة التي لا تسمن ولا تغني من جوع، ولو اكتفينا بما اكتفى به السابقون بالنوح عند نزول البلاء، والشكوى الى الناس لأضفنا بذلك مراثي جديدة الى تراث الاجداد ثم أورثناها جميعاً الأجيال القادمة، ولأثبتنا بذلك لأنفسنا قبل الآخرين قصورنا وعدم لياقتنا فيما ندعيه من اعتبارنا بالتأريخ ومعرفتنا أسباب السعادة والبلاء وطرق علاجها ونكون على هذا قد شهدنا لعدونا بالفضل والجدارة وهذا ما لا يغفره الله والاجيال....

فلنتأمل قليلاً فيما يجري دون تسرع في حكم أو غرور في رأي، ولنبحث عن مكامن الخطر في دروب الأولين، ونتعرض لأسباب الزلل في مستنقع الخاسرين، بالتحليل والنقد لا لصرف العلم، بل من أجل اقتناص حبل النجاة، ونسج حلق درع العبر، لنسير نحو الهدف في غير مسلك الذين هلكوا من قبلنا، فالبحر هائج والأمواج عاتية ولا مفرّ من التحدي... والاّ فلننعي أنفسنا قبل الناعين ولنلومها قبل الظالمين لأنّا سبقناهم بظلم أنفسنا اذ شريناها بثمن بخس وبدأنا بهدم الأسوار بإهمالنا ومهدنا بذلك السبيل لعدونا.

سيد حسين الحسيني الزرباطي

آذار ـ ١٩٩٦

العراق ومخلفات الاستعمار

توارث العراقيون منذ عهد طويل بيدراً من المعوقات الحضارية التي زرع الاستعمار بذورها في حرث العراق الخصب، وسقاها من عين خبثه لتنمو أشجاراً ظليلة، يستظل بها ويتمتع بثمرها عبر الأيام. وتتمثل هذه المعوقات في برامج متنوعة هادفة لا تخدم الاّ مصلحة المستعمر، وهي في الواقع جرعات سامة تعمد في اعطائها لهذا الشعب المسكين مستغلاً يتمه وبساطته، ليوقعه بها في بلاءين عظيمين تشغلاه عن النظر الى ما وراء الستار ليلعب هو في أمن وأمان كيف شاء ومتى شاء. وهذان البلاءان هما: الجهل والفقر، ولا يخفى ما فيهما من آثار سيئة وأضرار على حياة المجتمعات.

ان الشعوب المضطهدة لا تعلم ما تحاك حولها من مؤامرات، ولا تميز من بين المحيطين بها الأعداء من الأصدقاء الاّ قلّة من ابنائها تتمكن بجهودها الخاصة غالباً من الافلات عن دوامة المخطط الاستعماري. وتبقى عامتها العمياء في خبطها وفيها بركة الاستعمار. امّا القلة العارفة فتعيش حياة من يجد ما لا يشتهي ويشتهي ما لا يجد، وتنقسم عادة على نفسها بين صارخ انكاراً، فيسقى عقوبة على صراخه كأس المنون، وملازمٍ للصمت خوفاً فيقضي عمره في غصة نكد.

ان العراق وشعب العراق شأن بقية دول العالم المضطهدة ابتلى سابقاً ولاحقاً وتعرض أرضاً وملّة لاستغلال استعماري رهيب منذ أن أصبح فريسة السباع. ولم يجد أحد في الحدود الجغرافية لسلطنة الاستعمار شاهداً واحداً دلَّ على انَّ المستعمر أفاد شعباً عاش كابوسه كي نستثني العراق، فماذا توقع أو يتوقع العراقي والحالة هذه من ملوك ورؤساء لم يصلوا الى مسند الحكم الاّ بانتخاب الاستعمار ودعمه سوى الاستضعاف والمحرومية، وماذا كان نصيبه من ارث الاولين غير الذي ورّثه الاجداد. ولكن الذي نستنتجه من مقالات مَنْ كتبَ قبلنا عن الاستعمار والشعوب هو أنَّ الاستعمار في طريق الزوال بعد ادراك الشعوب حقائق الامور وبعد اليقضة من سباتها العميق، وعلى ضوء هذه النظرية فان الشعوب لما شعرت بالمظلومية وتحسست أثر سياط الظالمين بدأت تفكر في النجاة وتعد العدة لذلك، ومن هنا كانت ولادة الحركات

التحررية، وببركة هذه الحركات تمكن أغلب الشعوب من الانتصار على الظلم ونيل استقلالها وكفى بذلك فخرا. وهذه كلمة لا يتفوه بها الاّ واحد من ثلاثة: الاستعمار نفسه، أو عملاؤه الذين لم يجدوا طريقاً للعيش الاّ في ظلّه، أو الغارق في ظلمات الجهل ممن يحسب أنه يحسن شيئاً من جهلة الأمة.

ان نظرة واحدة في حياة المجتمعات تحت ظل سلطاتها الحاكمة المدعية للاستقلال كفيلة بكشف النقاب عن زيف الادعاءات، واثبات الحقيقة المرّة التي لا تقبل الجدل والمتمثلة في ان الشعوب بأسرها ما زالت تعيش الى يومنا هذا في ظلّ الهيمنة والاستغلال، وما الأهازيج الثورية والكلمات الجوفاء التي ملؤا بها الدنيا الاّ لون آخر من ألوان الخداع والتضليل، وأن الامم رغم مزاعمها تئن تحت تأثير التخدير الجديد والفعال للاستعمار الماكر، فان وجدناها تتغنى بالحرية وهي في قيد العبودية أو تفتخر بالتحرر العقلي والثقافي وهي في حضيض الجهل فما ذاك الاّ لأنهم خدعوا في عقولهم وزين لهم الشيطان ما أوحاه اليهم من سبيل فظنوا انه الحق ولا يؤمل ان يشعروا بما وقعوا فيه من مأساة الاّ يوم الافاقة الواقعية وما أبعده من يوم لان ذلك لا يكون الا بظهور ثلّة مؤمنة صابرة مخلصة لا تسأل على جهادها أجراً ولا تريد بعملها جزاءً ولا شكورا، وبمثل هؤلاء تفتح الامم للتحرر حسابها والاّ فالذي ربى بدنه على أكل الطيبات، وقتل روحه بترك المسؤوليات لا يمكن أن يصبر على جشب العيش دون الاقتداء بكلاب مسعورة تنهش الموتى في القبور، وما دام همّ الناس بطونهم ما ذاقوا حلاوة الحرية أبدا. وها هي شعوب العالم اليوم تسمع وترى انين المسحوقين وجولة المستكبرين في شرق الارض وغربها.

واذ يرى القاريء الكريم انّا قد اخترنا الكتابة عن العراق فان ذلك لا يعني حصر الموضوع فيه بل ذكرناه شاهداً على زيف اللعبة الجديدة للاستعمار، لعبة الحرية والديموقراطية. لقد زحف الاستعمار على العراق بغير قناع، وتسلط بالعدد والسلاح وقام بنهب خيرات هذا البلد واستخدم البطش بحق شعبه حتى لكأن الناس عبيد وهو وايادیه السادة. وبلغ المجتمع العراقي بفعل ذلك مرحلة خطيرة من التدهور في جميع نواحي الحياة، وطالت مدة المحنة وأوشك الشعب على الاستسلام لقانون

الغاب. ولمس المستعمر علامات اليأس القاتل في أعماق الناس وحجم الحقد الذى أكننوه له فأدرك المفسدة في ادامة المسير وتيقن بالفشل في استمرار الوضع بهذا الشكل، وعلم أن اليأس والحقد يتحولان لا محالة الى انفجار لا يمكن التكهن معه بالعواقب. وهكذا باتت نتائج الاسلوب الارهابي تنذره بخطر عظيم ووشيك، فدخل صومعة الدجل ليخرج بسحرٍ جديد يسحر به أعين الناس...

لقد كان سحر الاستعمار الجديد هو أن لا يتولى المهام بالمباشرة هذه المرّة بل يختار لنفسه وكلاء ينوبون عنه في اداء المهام ورأى أن أفضل مرشح لهذه النيابة يجب أن يكون من هذا الشعب نفسه، واختار من بينهم أبناء اولئك الامهات اللاتي سرقهن أيام سلطنته المباشرة، وربى أبناءهن في أحضانه فتخرجوا من جامعاته بشهادات عالية تؤهلهم لإدارة دولة أو وزارة في دولة في الوقت الذي كان ابن الشعب محروماً من أبسط حقوقه. ومن قدر أو يقدر على ارتقاء سلم العلوم الخطيرة ومتابعة اكمال مراحلها في المعاهد العليا العالمية ما لم يخضع لفحص دقيق من لدن السادة أو الوكلاء. وهنا يكمن سر ادعاء العمالة بحق من تصدى لاستلام القدرة في أية حلقة من حلقاتها وبات من الصعب على الحر السليم أيضاً اثبات براءة نفسه من هذه التهمة حينما يريد القيام للإصلاح، وذلك بسبب رسوخ سوء الظن هذا في الوسط الجماهيري الذي لا غنى لمصلح عن عونه ولا مأمن للاستعمار من بطشه، فالجو ملبد بالشك، وغبار الهرج والمرج يحول بين الرائي والمرئي، وقد يوجد في مثل هذه الاحوال من يصيد في الماء العكر، ولا يأمن المرء تستر اللصوص أو تقمص المتقمصين، وربما كان الوضع هذا من خلق الاستعمار أيضاً لتفويت الفرصة على الاحرار من أبناء الشعوب، فقد يعجزون عن كسب ثقة الشعب بسبب كثرة محاولات التدليس التي مارسها العدو، ولقد اغرى الاستعمار الشعوب مرّات ومرّات بهذه الطريقة، وبات الناس في أمر من هو الأصيل ومن هو العميل كمبيت بني اسرائيل مع البقرة إذ قالوا إن البقر تشابه علينا، ولئن كان في أيام بني إسرائيل كليم الله موسى الذى هداهم الى الحق فذبحوها بعد أن تبين لهم، فإن الناس بعد اختتام النبوات قد أضلهم السامري وسلب عقولهم فلا وحي يرشد ولا عقل يوصل الى تمييز الحق وها قد امتلأت الأرض بأديان وعقائد وأفكار وأشخاص

ولسان حالهم جميعاً واحد هو (أنا الحق)، والله يعلم ان أكثرهم لكاذبون.

لنعود الى قصة العراق الذي خيم عليه ظلال المستعمر المشؤوم، ولنتعرض لأحداثه بلسان الواقع بلا انحياز، بسرد الشعب لا ببلاغة الساسة، وفي مقطع من تأريخه القريب المدرَك تحاشياً من سهم تهمة الجهل بالتاريخ والشك فيه.

لقد حكم الاستعمار العراق قبل نيله ما يسموه بالاستقلال بشكل مباشر، ثم ناب عنه ملوك لا ريب في عمالتهم ولا شبهة في غرقهم وتلوثهم بعين العمالة. ومنكر ذلك جاهل ولا أقول أكثر من ذلك. حكموا الشعب لصالح الاجانب، حتى جاء عبد الكريم قاسم اوّل المغنّين بأناشيد الحرية، وأول المبشرين بالاستقلال، ولا عجب من التصفيق والهتاف بحياة الزعيم المبعوث ولا من الاستبشار بالجمهورية الجديدة بعد هذا الفتح، فها هو ابن الشعب البار جاء ليحرر الناس من عبودية الاستعمار، ويفتح عليهم أبواب الخير والأمل والحرية، فلا أثر لمادة الاستعمار بعد اليوم وألف مبروك...، ولم يبك على ما لم يكن بالحسبان أحد يوم إعلان الاستقلال، فقد كان الشعب قبل ذلك يعرف عدوه الظالم بسيماه، بجنوده وأوصيائه الرسميين، وما توقع خيره في يوم. أما الآن وبعد الثورة واستلام ابن العراق مفاتيح التقدم والحرية، فمن حقّه أن يقول هذا عارض ممطرنا. وحالت بينه وبين معرفة الحقيقة حلاكة الجهل واحلام الفقر، ولم يكن ما استقبلهم في الواقع الاّ ظلمات فيها عذاب أليم. فإذا كان الشعب المغلوب على أمره نال سوءً من ظالم لم يأمل منه خيراً قبل الاستقلال، فقد صار بعده يأمل الخير من صديق لم يحمل في كيسه غير حجارة السجيل، يحجبها عنه ثم يطعمها إياه فلا صواب عندها وقد فات وقت الندم.

هكذا هجم الإستعمار عدو الشعوب بزي جديد وأسلوب قذرلم يخطر على بال، واستبشر الجميع بالعهد الجديد، وتصافح الكردي والعربي، وتعانق الشمال والجنوب والكل في انتظار المن والسلوى من سيادة الزعيم. وعقدت الالسن وجفت الاقلام وكادت هي الاخرى أن تنطق عن هواها لتعبر عن عمق التضليل ودلائل الغواية. وبينا هم في أحلام اليقظة هذه وإذا بشمس الحقيقة تطلع لتمزق حجب الظلام وتهتك ستر الخديعة وهكذا تنكشف الأوراق بسرعة وتخرج هذه المرّة الشيوعية الملحدة

القابعة خلف كل تلك الشعارات والمخبوءة تحت بعض الالسن العراقية، وما درى أحد هل كان ذلك بتوافق مسبق من جمعية اللصوص، أو كان من جرّاء سطو اللصوص بعضهم على بعض، أولا هذا ولا ذاك وإنما كانت عملية تبديل زي ليس الاّ؟

ارتفعت بعض الاصوات بالبكاء والعويل في حين بقيت الأخرى ضاحكة مستبشرة، وما زالت الآراء مختلفة بسبب الجهل بواقع الاستقلال ورجال الثورة الى يومنا. لكن الذي لاشك فيه هو انّ غالب الشعب قد اطمأن لأقوال الزعماء الجدد، واستطاع رموزالانقلاب من كسب الجمهور وسوقه الى حيث يريد من الشارع العراقي بسحر الشعار وعطر الوعود، فباتت الكثرة المائجة السند القوي والعامل المهم في تثبيت اركان الحكم الجمهوري الجديد. واستولى دوي الشعار على الموقف فزاحم عيون العقل في تصوير الواقع ورؤية ما وراء الستار، وفرض الزيف نفسه في شعار استقلال العراق، وشق هذا الكذب طريقه الى حرث الجهلة، ودوحة مغفلي المثقفين، ليأخذ نصيبه من الرشد ثم ينقلب الى واقع متلألئ يذهِب بالأبصار في القادم من أيام التاريخ، وهكذا مرّرت المؤامرة ولحدّ ما نجحوا في ذلك، والدليل على ذلك أنك لو سألت اليوم أكثر العراقيين هذا السؤال: متى نال العراق استقلاله؟ لأجابوك بلا تردد أو تأمل: يوم إعلان الجمهورية بقيادة الزعيم. ولوعلموا أنهم ما زالوا في لجام الاستعمار الى يومهم هذا لما أجابوا بمثل ذلك، فإن الذي تغير هو ثوب الاستعمار ليس الاّ، ولأجل التوضيح ولمعرفة جوانب من المسألة نطرح بعض الاسئلة التي تظهر الاجابة عنها صوراً عن الواقع وهي:

هل كان خروج الجماهير (لسحل) من سموهم العملاء والخونة صبيحة ١٤ تموز عام ١٩٥٨م بإدراك تام لما يقومون به وأنهم قد أحاطوا علماً بالثورة والثوار وأهدافهم؟ أم أنهم فوجئوا في الواقع ولم يدروا أمن السماء نزلت هذه المائدة أم من الارض، ولما أزاح الثوار ستار الخوف بإعلان سقوط الملكية، انتهز المكبوتون الفرصة وخرجوا لتفريغ عقدهم بالنعيق مع كل ناعق ولم يكن في جعبة إيمانهم للثورة الاّ حسن الظن بسبب رفعها كابوس الخوف وسياط الجلاد؟. وهل كانت قيادة الزعيم لقطعة من الجيش وزحفه على مركز السلطة في بغداد بعلم وباتفاق مسبق مع قادة

الفكر والرأي والدين أم لا؟ وبعبارة اخرى هل كانت الثورة من إبداع عراقي أصيل أم كانت وحياً من وراء الحدود؟ وأن جهة أو جهات خارجية خططت لها وعينت أهدافها خارج العراق ثم استخدمت رموزها من المسخ العراقي الحائز على شهادة اللياقة في مختبرات البرمجة الاستعمارية؟ فلئن كانت الاولى فلم خانت وروجت لدين وأفكارٍ غير دين العراقيين وأفكارهم، وإن كانت الثانية فَلِمَ يفتخر العراقيون بهزيمتهم وانخداعهم على يد العملاء؟ ولم هذه الادعاءات التي سوّدت التاريخ دجلاً وتملقاً؟

وبعد أن جرع شعب العراق مرّة اخرى علقماً من كأس الاستعمار الجديد ومن يد دعاة الاستقلال في ١٤ تموز، ما مدى تأثير ذلك في العقول والضمائر؟ وماذا كان موقف المطبلين للتحرير ازاء الجرعة القاسمية؟ هل اتعظوا من لدغ الامس أم تراهم من تأثير الجرعة في كل واد يهيمون؟ من ثار على عبد الكريم قاسم ومن كان وراءه؟ هل الشعب كما يزعم ذلك المتاجرون باسم الشعب؟ أم وقع الشعب مرّة اخرى ضحية مأساة أكبر وضحية خيانة عقول ادّعت الثقافة والأصالة باعت نفسها بالبخس لتقدم شعبها قرباناً رخيصاً للأسياد تحت عناوين برّاقة وشعارات رنانة، والشعب المسكين في غفلة عن ذلك وهو يقدم بكل اخلاص عونه للأبطال الجدد من دعاة القومية العربية، فإذا به يعين نفسه على نفسه؟ فمتى أصبحت القومية ديناً يعتنقه الخاص والعام ويبيح فرضه استخدام القوة؟ ولئن زعم دعاة القومية الاصالة والحرية فلم استعانوا بالأعداء لقمع الشعب الذي له كل الفضل في بقائهم وحياتهم؟ ترى هل أصبحت هذه عادة متّبعة أنّه كلما فكّر أحد في الوصول الى السلطة أو الإنتقام من سلطة استنجد بالشعب فإذا هب لنجدته واستقامت له الأمور كرّ على من نصره قتلاً وإرهاباً وظلماً لتحميله ما لا يشتهي من جديد؟ فلئن كانت تلك عادة فبئس الشعب أنت يا شعب العراق. وإن لم تكن عادة وإنما غدرٌ يتكرر وخيانة تتجدد فَلِم يُلدَغ الشعب من حجر الف مرّة. أما آن لهم أن يكفّوا عن التصفيق لكل من هبّ ودبّ، أما آن أن يكفوا عن ترديد كلمات وشعارات لا يدركوا معناها ولا يعلموا مصدرها. ولِمَ لم يهتفوا لأنفسهم بدل الهتاف لغيرهم أليس لهم مبادئ يفتخرون بها هي أجدر بالترويج؟ أليسوا مسلمين؟ فلم إذن نبذوا كلام الله وراء ظهورهم ولم يجعلوا آياته محلّ كلمات

مستوردة من شرق الارض أو غربها، أين المؤمنون الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ليغيروا بلسانٍ أو يد كلّ مزيف لا يؤمن بيوم الحساب في أي ثوب كان.

فيا شعب العراق المظلوم المبتلى إن كنت مسلماً كما تدعي فحسبك كتاب الله عما تسمعه من قيل مثقفي أبنائك من الذين سقاهم عدوك من كأس الضلال، واعلم انّ المستعمرين هم شياطين الانس وقد حذركم الله من الشيطان اذ قال{ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا } وقال: إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم. فها هو الشيطان بين أظهركم يراكم وأنتم لا ترونه لأنه تستر في ثوب عراقيين منكم دخل العراق كما دخل ابليس جنة آدم وهو يريد أن يغويكم ويخرجكم من خيركم لتخسروا الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين. انهم أولياء ذلك العدو المارد الذي أعلن حربه على بني آدم منذ أن خلق الله آدم، أوليس هو القائل: { فوعزتك لأغوينّهم أجمعين } فهلاّ انتبهتم لتميزوا خيركم من شرّكم وصديقكم من عدوكم؟ وهل من أمل فيكم لوضع نهاية لقصة التشرذم والخيانة وسوء الاستغلال بعد سلسلة التجارب والعبر عبر التاريخ، فلقد استفحل مرض اللامسؤلية في صفوف أبنائك، وبات سوء الظن هو الحاكم بلا منازع فيمن أمر بمعروف أو نزل الى ساحة الصراع، وذلك بسبب تفشي النفاق في النفوس ورواج الدجل في الاذهان.. أين البقية الباقية من الأحرار من ابنائك لترفض بها كل أجنبي فكراً وسلوكاً لتعيد مجدك التليد الذي ضاع منذ مئات السنين بسبب الوسواس الخنّاس الذي وسوس في صدور الاجداد الذين باعوا الدين على عرقوب بوعد الدنيا فخسروا بذلك الدين والدنيا، وورّثوا تلك الخسارة الأبناء ليتلقفها الجيل بعد الجيل فيرى الأحفاد آخر المطاف أنفسهم في برزخ مقيت لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء.

وأخيراً فان الذي خلّفه الاستعمار من دمار وامراض في العراق يفوق التصور ويخرج عن حد الاحصاء، وما زال هذا القاتل يجول ويصول دون خوف، بعد ان جند عدداً كبيراً من العراقيين من عشاق السلطة والمال من الذين باعوا أنفسهم قبل وطنهم، فهم اليوم يد العدو في البطش بالشعب ووكلاؤه في جمع خيرات البلد وإرساله الى بنوك الأسياد ولا يهم هؤلاء بعد ذلك أن تجدب الارض أو يموت الشعب.

ومن المضحك أن البيادق هذه والغارقة في مستنقع العمالة حتى الآذان، تقف

على منبر الشعب وتتكلم باسم الشعب، وتدّعي بكل صلافة ما ليس فيها، وتعتبر انفسها حاملة راية التحرر وتغني بالوطنية وتتطاول على الشعب باعتبارها ولاة أمره، فأية رزية أعظم من هذا ومدرسة الاستعمار تستقطب يومياً أفواجاً من أبناء هذا الشعب لتسقيهم بكأسها المشؤم شربة لا يعودوا بعدها الى رشد ابداً.

الشيوعيون والقوميون

ما مرّت ايام على الحكم القاسمي حتى بدأت الشيوعية بعرض سلعتها المسمومة في سوق المسلمين، وبدأت شعاراتها الجوفاء تسوّد اللافتات وجدران الأبنية، كما بدأ دعاتها من ذوي الشوارب بجمع جهلة الناس ليرتلوا عليهم منشورات الحزب ويمنّوهم بما لذّ وطاب من رغيد العيش، ووعدوهم حريةً ما لها من نظير وتطوراً ما فوقه تطور وو... الاّ أن كل ذلك يتوقف على الاستعداد والتهيؤ للتضحية والفداء على زعم الدعاة لأن مسألة التحرير مهمة للغاية وصعبة المنال.

وكان أول ما طلبوه من الناس هو أن يضحوا بدينهم وقيمهم، لأن هذه بنظرهم هي من رسوبات الماضي وسلاح العاجزين وان الزمن قد تغير والعلم في تطور وان الانسان بالعلم في طريقه لغزو الفضاء فعلينا ان لا نتخلف عن الركب الحضاري ولا ندع المزخرفات تحول بيننا وبين جنة التحول الكامن وراء عجلة التطور، فيا عمال العالم اتحدوا ويا فلّاحي العالم اتّحدوا فقد جئنا من أجل تحريركم من الاستغلال والجهل والفقر.

ومن هنا انطلقت شعارات الحرّية، ومنها شعار الدين أفيون الشعوب وألقوا الشبهات بين جهلة الناس حتى كاد جمع ان يرتدّ عن دينه بعد أن وقع تحت تأثير بريق الشعار، وعندها صدرت فتوى الشيوعية كفر وإلحاد لتحفر لحد الشيوعية، وتمهد الطريق لفئة انتهزت الفرصة للوثوب على كرسي الحكم.

وبلغت الفئة الانتهازية ما أرادت بالفعل، واستلم بعض مدّعى القومية السلطة في بغداد، وظن الناس خيراً بعد صدور بيانات مجلس الثورة وانتظروا الوعود من حاملي راية العروبة. حيث منّوا الناس كسابقيهم بكل خير، ولم يدع حرسهم القومي

الشعب يمل من الانتظار، فخرج بعد توطيد الامور ببزته الخاصة مدججاً بالسلاح زاحفاً صائلاً حيث أراد، شعاره أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة وعمله ترهيب الناس بسلاحه، وارغامه على تنفيذ أوامره، من خروج الى تظاهرة، أو انجاز لأعمالهم الخاصة وما شابه، ومن لم يفعل فله الويل والثبور، وهنا وبعد فوات الأوان كدأبه ادرك الشعب أنّ الفأس قد وقع في الرّأس، وعليه أن يلعق مرارة الصبر وينتظر المنقذ، ليصفق له كائناً من كان ويهتف قائلاً: يعيش، يا يعيش. وما أكثر وقوع الشعب ضحية لهذا الشعار، وهكذا اجتاز القوميون حدود الادب مع الشعب، وفعلوا مافعلوه من قبائح شنيعة واعتداءات اثيمة على أعراض الناس وأموالهم وأنفسهم وقد أُلّفت الكتب عن جرائمهم تذكر بالارقام شين صنيعهم وهم مع كل ذلك يدّعون الاصالة والوطنية شأن من سبقهم من العملاء. وهكذا يتجرع العراقيون كأس غفلتهم من يد عصابة لا يعرفون أصلها ولا نسبها ولم يتعرفوا عليها الا بعد حين من الدهر، وليت هذا كان آخر كأس يشربون.

إن المسرحية المعروضة في صالة المسرح العراقي كثيرة الفصول طويلة المشاهد، رأى الأجداد قسماً منها، وها نحن الآن نستمتع ببعض مشاهدها، وحصة الأحفاد محفوظة بالقطع واليقين. والغريب في هذا الأمر هو عدم تأثر معدّوا هذه المسرحية ومخرجوها وممثلوها من طول مادتها ومدتها، والأغرب من ذلك صبرالناس وتحمّلهم عذاب انتظار النهايات المؤلمة للفصول والمشاهد، إذ لولا حضورهم الدائم وإظهارعلاقتهم بالفنون المسرحية لما اغتر المخرج ولعمل على تقليص الفصول وتطويل فترات الإستراحة على أقل التقادير.

إنّ ما ذكرناه الى الآن كان تمهيداً للخوض في تفاصيل الحلقة الآتية والمقصودة اساساً في هذا الكتاب فالذي فات مات ولايهمنا ذلك الاّ بمقدار الإتّعاظ ويكفي منه ما قدّمنا، أما الحاضر فهو ميدان الإختبار والمسؤلية وبموقف الإنسان من الحاضر يقاس عمله ويتوقف الحكم له أو عليه مستقبلاً.

لقد كتبت عن البعث كتاباً حين كنت في العراق، ذكرت فيه التوصية الرابعة من المؤتمر القومي الرابع لحزب البعث العربي الإشتراكي. وتعرّضت مفصلاً لنقد بنود التوصية وسلبيات حزب البعث عموماً، وظل ذلك الكتاب في رحم الكتمان بانتظار

اليوم الذي يولد فيه، وعزّ ذلك اليوم حتى انتفاضة عام ١٩٩١م فمات في المخاض حين التهمت نارحقد البعث الدار وما فيه بعد استشهاد الإنتفاضة. فعزمت على الكتابة عن البعث حيث رأيت حرمة السكوت عن الباطل، وكان الذي بين يديك، كتبتها في ظروف قاسية أيام تشردي من بطش البعث مع عائلة كبيرة لا استقرار فيها ولا راحة بال، ولم يمنعني ركاكة البيان الناجم عن ظلمات الحياة من ايداع بعض الهموم في هذه الأوراق، فعسى أن ينفع ما كتبت اولئك الذين لم يعرفوا الكثير عن حزب البعث

الانقلاب الأبيض

أعلنت إذاعة بغداد صبيحة يوم ١٧تموز ١٩٦٧م نبأ وقوع انقلاب أبيض على الطغمة الفاسدة عبد الرحمن محمد عارف وطاهر يحيى، وبدأ بذلك فصل جديد من اللعبة الاستعمارية في العراق، وكنت يومها في بغداد وقد تخرجت توّاً من الصف الخامس الثانوي من احدى مدارسها الإعدادية، وسمعت البيان الرسمي الأول للثائرين الجدد كما سمعها الناس وكان البيان مختوماً بعبارة (مجلس قيادة الثورة) دون الإشارة الى أية معلومة عن هوية الثوار.

خرجت في الفور الى الشارع بأمل الوقوف على ما يستجد من الأحداث، فرأيت المجتمع البغدادي على ما هو المعهود في كتلٍ ومجموعات هنا وهناك رغم إعلان منع التجول في المدينة، يدور بينها الحديث همساً وبهدوء والأكثرية تضرب الأخماس بالأسداس. والناس بين من يرقص فرحاً بزوال حكم أبي فرهود ومن يغني أملاً في الخير الآتي، ولا أحد يعلم ماذا حدث حقيقة ومن هو القادم ملاك أم شيطان.

حاولت أن اعرف شيئاً عمّا يدوربين الناس من كلام، وتخللت المجاميع فسمعت بعض الهمس، كما سألت عدداً من الناس فلم أجد من يحط علماً بقليل أو كثير بالذي حدث، وعلمت أنّ الناس يصفقون لا لشئ. فالمهم أنّ تحولاً حصل في وقت كانوا يعضون الأنامل من الغيظ من فرط الندم على الامل الضائع في العهد العارفي، وقد قرت الاعين بزوال الظالم الذي عرف في بغداد بابي فرهود، فليجربوا حظهم هذه المرة

مع الثوار الجدد، عسى ان يحالفهم الحظ في بلوغ المنى، وهذا هو موقف الشعب غالباً ازاء كل جديد من الاحداث، ففئة تصفق تأييداً بعلم أو بغير علم وفئة تلزم الصمت في انتظار القدر المحتوم.

تعامل الابطال الجدد مع مسألة ابراز هوية الثورة والثوار باحتياط شديد بداية الامر، وقد عرف السر فيما بعد، فانهم لما كشفوا النقاب عن الوجوه، ظهر ان لصوص الامس الذين اذاقوا الناس سيلاً من العذاب بعد سقوط عبد الكريم قاسم والذين عاثوا في العراق الفساد بحرسهم القومي المعروف هم اصحاب الثورة هذه المرّة ايضاً. ولولا ذلك الكتمان اول الامر لتلقوا من الشعب بدل التصفيق صفعة. وهكذا استمر الكتمان حتى ارسوا قواعد قدرتهم بسرعة كبيرة، بعد ان شروا عقول الكثيرين

من ضباط الجيش، وفي ٣٠ تموز انتهت قصة القيادة والرموز، ونظمت الحلقات من جديد بعد ان طرحوا بعضها ارضاً قرابين ضمن مناسك الحزب والثورة، ولم يعلم سر احداث٣٠ تموز على الحقيقة الا الله، والراسخون في العمالة من اقطاب الحزب والاّ فهم اظهروها على انها خيانة وتمرّد على الحزب، وقى الله الشعب شرها.

بعد فترة وجيزة قرأت اول سفر من اسفار الدين الجديد في الجريدة الرسمية والظاهر ان نشرها كان فلتة من لجنة رقابة فتاوى البعث بسبب الفوضى والارباك الذي اصاب الحزب ايام الردّة، بدليل انهم قاموا بعد ذلك بكتابة السفر محرفاً والاّ فالدجل والكذب واخفاء البواطن اس الاسس في تاريخ السياسة عامةً والبعث خاصة. فالذي قرأته عبارة عن تهنئة من أحد الرفاق رفعها الى مجلس قيادة الثورة بمناسبة الانتصار على الردّة وبيت القصيد فيه:

نحن بعث إن مسّنا جرح ضيم نحرق الأرض والسما و الوجودا

والذي يدل على جرأة هؤلاء الصعاليك، وعلى ما ينتظر الناس من عذاب، وماذا يمكن أن تنتظره شياه مسكينة من راع أرعن غير سياط الحقد أو أنياب الذئاب؟ وعلى أي حال فقد تمكن المزيفون من إرساء قواعد دولتهم بالعنف والإرهاب والدجل، وبدأت ماكنة شؤم الحزب بالعمل ليل نهار، وما أكثر عملها وأقبح نتاجها، وهكذا كشفت الأيام شيئاً فشيئاً النقاب عن ليل مظلم مدلهم، وإعصار فيه نار، وعن شجرة الزقوم رفد البعث الموفود.

عرف الشعب شياطين الإنس حين الإعلان عن أسماء القيادتين القومية والقطرية من عفلق وشبلي وفرح ويوحنّا وعزة الدوري وصدام حسين الأمي وآخرين ممن رضعوا من ثدي العمالة وترعرعوا في احضان الخنا يتمم عدّتهم ثلّة من معروفات بغداد اللائي منحن لقب رفيقات من لدن الحزب ليتم بذلك الفرح والسرور ويجتمع شمل العائلة البعثية من جديد لتصبح بؤرة فساد وشقاء في البيت العراقي الكبير الطاهر. وعذراً لمن يرى حسن الترفع عن ذكر مثل هذه العبارات فإن الذي أذكره بحقهم مغسول سبع مرّات بماء الترفع وحقيقتهم لا تحويها كلمات الشين ولو اجتمعت وصارت بعضها لبعض ظهيرا.

والحديث عن مأساة العراقيين في ظلّ كابوس البعث طويل ومزعج، والتفكير في بساطة الناس وسرعة وقوعهم في الفتن ومظلوميتهم مقرح للقلب، فكيف تسنى لميشيل عفلق المسيحي الغير العراقي ان يتحكم في رقاب العراقيين، ويسن لهم منهاجاً لحزبه يفرضه بديلاً لمنهاج الشعب المسلم صاحب الاصول العريقة والحضارة المعروفة. منهاجاً بديلاً لقرآنهم وسنة نبيهم، وبديلاً لقواعدهم الاخلاقية العشائرية المعروفة، موحياً اليهم ان ما سنّه هو الحق وما سواه هو الباطل، ثم يسلّم الخبيث انجيله الجديد الى مجلس قيادة الثورة في العراق وهم النفر الضال من حواريه آمراً اياهم بتطبيق اوامر الرب ابن الابن تطبيقاً حرفياً دون مسامحة في شيءٍ منها، واذا عرفنا هذا، عرفنا السرَّ وراء وعيد البعث على لسان صدام حسين في خطاب علني عبر الراديو (ان الذي لايدخل تحت خيمة الحزب ليس له حق الحياة) فهذا امر رب صدام عفلق بن الوَّب يسوع الابن فمن قال لالشيء من آيات انجيله فليس له حق الحياة يعني انه محكوم بالموت والفناء..

ترى من هو عفلق هذا الذي تجرأ على العرب والعراقيين بادعاء الولاية عليهم؟ واية جهة كانت وراء توجيهه؟ وهل اعدّوه للعراق اساساً لينطلق منها صوب بقية العرب ام هو من الجراثيم التي أطعموا بها الجسد العربي لتفتيت كيانه فصار من حظ العراق العاثر؟ وكيف تمكن من الاستحواذ على عقول نفرٍ ضال من حملة الجنسية العراقية ليوافقوه الرأي في تدمير العراق وشعبه جسداً وروحاً وبحماس كبير؟ وماذا

ظنّ اولئك المنحطون بأنفسهم وبالناس وهم يدركون قبح تقمصهم وانفضاح امرهم؟ أهو الجهل مرّة أخرى أم خبث أفرزه موت الضمير؟ ماذا نقول لمن تقمّص سراويل الصلاح وهو غارق في بحر السيئات؟ ألم تكف مشاهدة فصول مسرحيات الحركات المكشوفة الهوية المصوّرة للواقع الملعون عبر الأيام الطويلة الماضية كي ننتبه من نوم الغفلة ونرى مصادر الخطر الذي يهدد كيان الأمة لدرء السهام القاتلة التي طالما أ نّت من جروحها الشعوب المضطهدة، سيّما وادعاءات المدنية وطبول الثقافة والتقدم تسمع من أفواه النساء قبل الرجال. فمالنا لا نعي الأمور ولا نسعى لأجل خلاص أنفسنا والآخرين بتجنبنا الطرق التي لمسنا مخاطرها ونتذكر خواطرها وما بال مثقفنا يسبق جاهلنا في سلوك تلك السبل الضارّة العقيمة.

لا شك أنّ المنهج الذي أعدّ للتمكن من العراق وشعبه إنّما قرر نظرياته خبراء من جهة أو جهات استعمارية مشتركة وصيغ على شكل برنامج متكامل للحياة بكل أبعادها، ثم أطلقوا على مولودهم اللا مبارك اسم نظرية البعث العربي الاشتراكي. ولدفع الشبهة عن هذا العمل الغير الصالح فقد نسبوه الى المسمى (ميشيل عفلق) ذلك القزم الذي يدّعى العروبة على أنّه الأب الشرعي للوليد والمبدع للنظرية، وهذا هبة من الله للعرب أن بعث فيهم من يبعثهم من جديد بعد أن ماتوا بسيف الإستعمار. ومن المعلوم ان أصحاب الفكرة لم يحددوا حين اعداد البضاعة بلداً بعينه، إذ أنّ المسألة كما هو واضح اكبر من قصد بلد واحد، والعنوان يدل على انّ الصيّاد استهدف بشباكه الكبير الأمة العربية بأسرها. فهذه الفكرة وأمثالها تكون بمثابة الأفعى التي بواسطتها دخل إبليس جنة آدم، فلتتهيأ أولاً ثم لتدخل من أي باب تمكنت من الوطن الكبير، فالغرض هو الاستيلاء من جديد على العرب الذين ظنوا أنهم حرروا أنفسهم من قيود الاستعمار القديم.

ان العراقيين والعرب وباقي شعوب العالم الثالث سقطوا ضحية الوهم بحركات وثورات وقعت في كل بلد، مزينة بصبغة الوطنية على انها بداية الحرية والاستقلال، وقد خفيت عنهم حقيقة تلك الاحداث وانها ليست سوى صراعا على الميراث بين الاقطاب بلغ اشدّه فاخذ كل طرف يكيد للآخر وبدأت الشعارات تتناثر وبات تحريك

الشعوب وحثها على العصيان السلاح الامثل في ضعضعة الانظمة الحاكمة واسقاطها. فانطلت هذه الحيلة على البسطاء، وتشكلت حركات واحزاب، ونفخ كلٌ في صوره ليملأ الارض ضجيجا ويقول انا المحق ، فصفقت العامة، وقاتلت بسلاح الصديق الجديد وبدعم اعلامي منه. ونرى صمود الخصم في جبهة وهزيمته في جبهة اخرى اما للعجز عن المقاومة أو بسبب عدم جدوى الاستمرار في المقاومة، فينسحب مطلِّقا من باب ليدخل الصديق الجديد مزوجا من باب آخر في زواج عصري للغاية. فعلى سماط الدعوة كل ما لذ وطاب والدعوة مفتوحة للجميع والملّة المغلوبة على امرها ضاحكة مستبشرة تظن انها قد احسنت صنعا، فما عليها الا الاستمتاع بملذاتها في اطمئنان وراحة بال فلا موجب للقلق سيما وان هذه الدعوة هي الاولى في العمر بعد العذاب والشقاء. وجرع الشعب من كأس الغفلة حد الثمالة واكل من فاكهة الغفلة حد البطنة، وطرب من فرط النشوة مع ابواق الأناشيد الوطنية حتى الرقاد ونام على اصوات الانغام نومة لم ينتبه منها الا بعد انتهاء شهر العسل، ليعود الى رشده ويتفقد بيته وديارة فيرى العجب العجاب. فالسارق الذي كان يدخل من النافذة دخل من الباب هذه المرّة واستولى على كل شيء خلال شهرالسكر الذي عاشه في الوهم، ويشرع المسكين في الصراخ بوجه الخائن الغرور ولكن دون جدوى، فالسلاح في يد العدو المارد الذي يخيّر الجميع بين قبول الامر الواقع وقطع الرقاب، وهكذا عاشوا مرغمين عبيدا في جلابيب احرار لا يملكون لانفسهم ضرا ولا نفعا، يشكون تعاسة الحظ لانفسهم مهمهمين، ويلعنون الدنيا ومن فيها ويندبون النصيب العاثر. واما اللص الجديد فقد بدأ يسرح ويمرح متنعما بالخيرات دون منازع. وربما كانت اللعبة الجديدة من صنع السيدالقديم نفسه بعد ان رأى الشعب في طريقه الى الانتحار.

هذه هي مقدرات الشعوب في العهد الجديد وهذا هو قدرهم المحتوم ولا اختصاص له بالعراق بل هو وباء سار في كل مجتمعات العالم الثالث ان لم نقل العالم، ادعاءات فارغة بالاستقلال والحرية في بحبوحة العبودية والذلة، ومن ادعى من انظمة هذه الدول غير ذلك فقد قال زورا، وأي نظام منها قادر على اثبات استقلاليته في القرار والتصرف، واي نظام منها لم يهرول في تنفيذ امر سيد من السادة بموقف في مؤتمر أو

فعل في الساحة الدولية رغم انفه، والشعوب المسكينة تدرك المأساة والعقلاء يعترفون بالحقيقة ولا احد ينكر الشمس في وضح النهار الا المنافقين الذين تصوروا انفسهم عقلاء فمدوا لسان الجهل لتوجيه اخطاء الارض بكاملها رياءً ودجلاً وتملقاً وظنوا انهم احسنوا بذلك.

انّ المسألة التي أردنا عرضها في هذا الكتاب والمتمثلة في جولة حزب البعث في العراق هي فصل من فصول هذه المسرحية العالمية، والشعب العراقي الذي اوهموه من قبل بالاستقلال كان وما يزال يظن الخير في كل عراقي يحاول تغيير النظام وشعاره العدالة الاجتماعية والحرية والاستقلال، ولهذا السبب نرى ان العراق لا يخرج من فخ الا ويقع في فخ جديد. وها امامك شعب العراق في مصيدة الحزب الجديد ذي الادعاء الطويل، فكيف وقع هذه المرة في الفخ وما كان نصيبه من سماط البعث الهجين؟ وهل لقنه التاريخ الدرس البليغ ام ان الحالة باتت عادة والبحث عن القدر المطبوخ فقط هو السبيل المختار؟ هذا ما سنحاول معرفته من خلال البحث.

ظهور البعث

كان للفقر الثقافي في الوسط العراقي الدور البارز في ظهور برعم هذا الحزب، والعوامل المساعدة الاخرى ادت الى نموه وترعرعه بسرعة كبيرة من قبيل الفقر المادي والفساد الاجتماعي وقلة الوعي الديني وغيرها من مخلفات السياسات السابقة للحكومات العميلة التي حكمت العراق. فلا غرابة من مشاهدة فكرة مجهولة أو فئة غريبة تعيش حياتها بحيوية رغم ركاكة جذورها وهزالة فروعها. وارضية مثل العراق صالحة لبروز مثل تلك الحالات، وبمتابعة بسيطة لحياة حزب البعث عبر مراحل الانبعاث نلمس ذلك بوضوح، فقد بدأ ضعيفاً مرتاباً عديم الشخصية قليل البضاعة متستراً بحجاب الزيف والشعارات الفارغة جباناً الى حدّ كبير في مصارحة الشعب بحقيقته واوّلياته، فظهر حملاً وديعاً في صورة رموزه ليكف بأس القوي ويضمن تغرير الضعيف، ومثل هذه السياسة ضرورة لكل دخيل غريب.

وبتتبع تطبيق ذلك يصل المرء الى حقيقة ما وراء الحجاب، ولعدم وجود من يهمه الامر آنذاك ليقف وسط شعبه صارخاً محذّراً، وكتم العالم علمه وانشغل الجميع بهمومهم الخاصة، فقد وجد العفريت الوليد الطريق السهل لادامة الحياة والنمو والسير بخطىً تكبر يوماً بعد يوم نحو الأرضية الملائمة، والبدء ببناء القلاع الحصينة ليعيش فيها بأمان، فمن لم يتذكر من العراقيين تملق عقول الحزب لدى ذوي النفوذ بادئ الرأي، ومن ينسى قميص النسك الذي ارتدوه وهم يقفون على ابواب العلماء بخشوع الذين آمنوا، وهل يُنكَر مشاركتهم الناس في شعائرهم ومشاعرهم بمعونات مالية وحضور بأعلى المستويات في المساجد والحسينيات وهم يطلون بذلك سوء سرائرهم بهالة من المظاهر الموالفة لمظهر الشعب العقائدي والاجتماعي درجة لم نسمع وقتها الا المدح والثناء من المخدوعين الذين كانوا يمثلون اغلبية الشعب في حين كان البعثي يقول لاخيه اذ يلتقون في اجتماعاتهم: انما نحن مستهزؤن. وهكذا جرت الرياح كما اشتهت أنفسهم ولفّوا من لفوه من غوغاء الناس بشباك خديعتهم من اولئك الذين ينعقون مع كل ناعق فساقوهم الى الشارع ليعبروا بهم عن وجودهم المنحوس في تظاهرات تأييدية هنا وهناك.

لقد صك الضجيج والهتاف بحياة البعث آذان ذوي الفضل والكيان من اعداء البعث القابعين وراء جدران الحياة والمنهمكين في مفرداتها وحاول البعض منهم ان يرفع رأسه لينظر بغضب الى ما حوله لا كداعية معارضة بل لغضب النفس من نتنات الريح فرصدته عين الحزب، وحان بذلك حين البعث ليثبت لمن تسول له نفسه النظر بغير الرضا الى الحزب والثورة، ان البعث قد بلغ رشدا وان له قواطع واضراسا، وقضم بمهاره عالية أول رأس واتبعه بالثاني فالثالث وهكذا باتت الرؤوس تتطاير اينما رفعت. وما أيسر توجيه قبيح الفعال في خضم القيل والقال، وما أسهل الاقناع بعد احراز حسن ظن الناس. فهذا جاسوس عميل وذاك عتل زنيم وثالث مستغل افاك وما أكثر الذنوب المعذرة لانتهاك الحرمات والموجهة لحملات التنكيل التي شرعها البعث مع أول خطوة له في انطلاقه من قاعدته التي بناها على اكتاف الرعاع. وهكذا هتك البعث استاره وكشف الغطاء عن حقيقة لم تكن في حسبان عامة الناس.

تناقلت الالسن انباء الرؤوس التي اطيح بها واخبار الاعتقالات والسجون لكن بهمس قاتل، فقد ثبت بالقطع ان الحديث عن تصرفات الحزب والانتقاد يعني الهلاك. ويستمر الحديث في البيوت والمحافل بخفاء، ويزداد تنويعا كلما مرّت الايام والاسابيع، ولم تجد في تلك الفترة ظاهرة غير القيل والقال اذ لم يكن من يتجرأ في التصدي بعمل ما. فليقل معارضوا حزب البعث في محافلهم ما شاؤا فلا يردع الحزبَ قول لهم ولا يكفه عن عمله منهم حديث.

وقد يقول قائل ان هذا الرأي مخالف للوجدان لأنا رأينا معارضة لهذا الحزب منذ اول وهلة، وان فئات وطنية لها مواقف وبطولات في ساحة التصدي. قلنا ان الادعاء شيء والواقع شيء آخر ولا ننكر ابداً وجود احزاب كثيرة في قائمة معارضي حزب البعث مروجوها في العراق وقادتها تنطق بلسان الآخرين من قواعد في لندن وباريس وواشنطن وموسكو وغيرها من العواصم التي هي معروفة للقاصي والداني، كل حزب يدعي الوكالة عن الشعب ويتحدث باسم الشعب، لكنه عند اللقاء تجده يحتمي بالابرياء بدل ان يقيهم فاذاسقط بفتنته بريئاً أو اصاب الضرر بشعوذته مسكيناً تلى الحزب انا فتحنا لك فتحا.

وكم من برئ لقي حتفه أو ضاع في زنزانات البعث بسبب منشور غير ذي قيمة وضعه بطل منهم طي عدد من المصاحف بعد تسلله الى المسجد، فضبط بيد برئ وهو يتلو القرآن، وكم من حزبي دخل صفوف موكب حسيني ونفث بشعاره المعادي للنظام في لسان الاطفال المشاركين ثم انسحب عن الجماعة بسرعة البرق لينظر بعد قليل هجوم رجال الامن على هذه الفئة، بعد ذلك يعلن الحزب عن قيامه بتظاهرة صاخبة ضد السلطة الحاكمة. انه الصيد في الماء العكر. ولقد بات الشعب العراقي ومنذ زمن ضحية رموز لا يقلون عن غيرهم دجلا، وبعض الالاعيب التي يمكن عدها من حيل الوصول الى السلطة لا يجوز احتسابها اعمالا بطولية هدفها الشعب. ان الذي يريد الشعب ينفع ولا يضر، ويحميه بصدره ولا يحتمي به، ويعيش آلامه بين ظهرانيه معتمدا عليه ولا يقضي ايامه برفاه في بيوت اعدائه حالما بكرسي الحكم راكناً اليهم في ذلك، انّ التحدث باسم الشعب امر عظيم لا ينبغي الاّ لأهله، كما ان سوء الاستفادة

من الشعب ذنب غير مغفور. فوا عجباه من جرأة الناس على الله وعلى الشعب وعلى التأريخ.

ان الذين يذرفون دموع التماسيح على الشعب والذين لا ينفكون عن دق طبول الحرب مع السلطة باسم انقاذ الشعب من الظلم، عليهم ان يثبتوا للشعب اولاً انهم الاحسن، ومن ثم يبينوا للناس ما قدموه من خير طول فترة التصدي كدليل على ادعاء خدمة الشعب ثانياً، وان يثبتوا براءتهم من تهمة العمالة للاجنبي ويوجهوا الدعم المادي والسياسي والاعلامي الخارجي لحركاتهم مبرهنين على سلامة موقف الأجنبي في هذه القضية ثالثاً، وأنى لهم ذلك وقد تيقن الصغير قبل الكبير ان السياسة تعني المراوغة والدجل والكذب وان السياسة تعني الوصول الى السلطة وان كان على حساب الشعب لغرض خدمة اسياد يريدون السيطرة على العالم وان عتاة الارض لم ولن يسمحوا للاحرار بمزاحمة مصالحهم مهما كلفهم ذلك، وهذا ما يؤيده التأريخ ايضاً، فكيف يُصدَّق براءة واشنطن من الأطماع في ترويجها للحزب الفلاني ام كيف نثبت خلوص بريطانيا في وقوفها مع فئة وطنية اخرى وهكذا. وقد كفتنا الايام مؤنة الاستدلال على اثبات ذلك بعد كشفها القناع عن ادارة المخابرات الامريكية لاكثر الاحزاب الوطنية المطروحة في سوق السياسة على انها المعارضة الحقيقية في العراق.

عناصر الحزب ورموزه

الرموز والشخصيات الحزبية تدل عادة على هوية الاحزاب ومستواها وعمقها الفكري، وحزب البعث العربي الاشتراكي غني بالشخصيات التي يسترشد من خلالها الى مستوى البعث الفكري النظري والتطبيقي العملي.

وعناصر الحزب في العراق من ضمنها بعض القيادات القومية والرفيق القائد المؤسس تكفي عيّنة لتشريح ودراسة جوهر هذا الحزب. اما القيادة القومية فمعروفة الماضي والحاضر فكراً وارتباطاً وسلوكاً. عملاء استخدموا لانجاز مهمة استعمارية ولا صلة لأغلبهم بالعراق، درسوا في معاهد المستعمرين وتربوا في محافلهم، وبرمجوا لصالح الاسياد لا لسد حاجة العرب أو العراق.

وأما القيادة القطرية وقيادات الفرق والشُعَب، فقد اختاروا لأداء الدور ثلة عرفها شعب العراق في مستوياتها الثقافية العلمية والاخلاقية التربوية، وكان الاجدر بالعارفين من ابناء الشعب ان يتخذوا من ذلك دليلا على انحطاط الحزب والتشكيك في اهدافه منذ اول يوم عرفوا فيه تلك الوجوه والتشهير بهم وبشعاراتهم ليحولوا بذلك بين العوام والانخداع بالمزيفين، وهؤلاء اناس لعنهم الله والملائكة والناس قبل ان يبعثوا من جديد، ويوم دنسوا ارض العراق في زيهم القومي حيث سودوا وجه القومية العربية بما فعلوه آنذاك.

ويكفي في اثبات تجردهم من كل خير ثبوت تبعيتهم للأجنبي وامتثالهم اوامر اعداء العراق من المستعمرين الذين البسوا العراق ثوب الذل فيما مضى من الزمان، هذا مضافاً الى الامية الطاغية على غالبية افرادها. من لا يعرف صدام حسين النائب لرئيس مجلس قيادة الثورة سابقاً ورئيسه لاحقاً، وهل كان الرئيس الاول غير احمد حسن البكر ذلك العسكري الذي ما كان يملك لنفسه نفعاً ولا ضرا والمنفذ لقرارات المجلس الموقعة من قبل صدام وعزة بأمر من الاسياد. وصدام النائب هو احد الفارين من الخدمة العسكرية ومن الذين سلكت بهم الايام سبل الشقاء تلقفته يد الاستعمار لتستغل شقاءه ولا أباليته بما كان أو يكون، فانتخبوه، عضوا في الحزب المقترح، وقد

كان المستعمر قد دس خبراءه في صفوف العراقيين لجمع شتات النماذج النافعة في تصورهم لغد الحزب ليبنوا بها قاعدة عراقية مناسبة لاهوائهم تفيد في تركيب هيكل الحزب عليه، ونجح صدام في اختبار اللياقة التي حبذها الاسياد في العنصر المطلوب، وتدرج في مراتب الحزب، تسلم مهام نيابة رئاسة مجلس قيادة الثورة وهو بهذا المستوى المتدني فلا هو من حملة الشهادات ولا بالمتخصص في فن ما من الفنون، ولقبح هذا الموقف فقد تدارك الاسياد ذلك عندما استقرّت المسألة لصالح الحزب بمنحه شهادات رمزية من جامعات معروفة. وليتسلم أخيراً منصب رئاسة المجلس بعد تنحية احمد حسن البكر. فماذا نأمل في كوادر حزب رئيسهم صدام.

ومن سخرية القدر ان صداماً الذي يدق طبول بعث العرب لا يجيد التحدث باللغة العربية الفصحى تلك اللغة التي جاء صدام لاحيائها ولقد صرّح امام الملأ ـ بعد انتقاد اذاعة لندن لخطبة له القاها في بغداد عبر الراديو والتلفزيون كانت مليئة بالاخطاء ـ انه ضعيف في اللغة العربية. فلتقرّ أعين العرب بسيدهم الجديد.

لقد غلب على شروط اختيار العضو في تنظيم حزب البعث طابع خاص لا يمت الى المنطق بصلة، اذ ليس الشرط الاساس في العضو ان يكون من ذوي المؤهلات العلمية أو الحائزين على درجة من الوجاهة الاجتماعية، انما الشرط الاساس هوان يكون العضو مستسلماً منذ البداية للحزب ينفذ اوامر الحزب دون نقاش حتى وان كان المأمور به امراً غير معقول وشعارهم المعروف نفذ ثم ناقش هو القانون الداخلي للحزب، فالحقيقة انهم يشترطون العبودية في العضو مقابل وعود بالسلطة والمال، فما لم يحرز بالقطع واليقين هذا الشرط وما دام العضو لم يقسم بشرف الحزب على استعداده لارتكاب الرذائل مهما كانت بشعة ممقوتة فلا ينال شرف العضوية في الحزب. وعلى هذا هل ينال مثل ذاك الشرف الا اللا ابالي الذي لا يهمه ما يقول وما يقال فيه، الذي لا هم له الا نفسه وشهوته. واذن لا الدين ولا العلم ولا الاخلاق له دخل جدّي في دين البعث، فالمهم أن يؤمن الفرد بالحزب ديناً ويتعبَّد بتطبيق أوامره عملاً وله بعد ذلك ما يحقق بعض احلامه.

كان لأمثال هذه العناصر الاثر السلبي على القاعدة الاساسية للمجتمع العراقي من جوانب متعددة، وبدأت مناهج مدرستها تعطي ثمارها الخبيثة يوماً بعد يوم حتى كسحت فكرة الشيطان كل قلاع الاخلاق والايمان ولم يسلم من سمه الصغير والكبير، وأصبح العراق مدرسة كبيرة للدجل والنفاق بعد تحطيم كل الاسس الجيدة التي حافظ عليها المجتمع رغم الظروف القاسية التي مرت قبل عهد البعث. ونحن نذكر هنا اسماء بعض معلمي هذه المدرسة من اعضاء القيادة ممن قرأهم الشعب فكراً وعملاً، والذين نشروا صحفهم الكاشفة عن حقيقتهم عبر سنوات تسلط هذا الحزب، فبهم نهتدي الى مستوى الكادر البعثي ذي الإدعاء الطويل في مدرسته مدرسة الاجيال فمنهم:

صدام حسين، عزة الدوري المعروف بـ (ابي الثلج)، طه ياسين الجزراوي، طارق (يوحنّا) عزيز، لطيف نصيف جاسم، محمد سعيد الصحاف، طارق حمد العبدالله، سعدون حمادي، ناظم كزار، وضبان التكريتي وبرزان التكريتي. ومن كبار مسؤلي الحزب ايضاً نذكر: عبدالحسن راهي فرعون ومزبان خضر وسمير الشيخلي وعلي حسن المجيد وحسين كامل وامثالهم كثير.

وهذه النماذج تكفي مثلاً لبيان النوعية التي تمثل الاساس في قيادة شعب العراق، وايامهم السوداء أغنت عن بيان تفاصيل حياتهم بعدأن كشفت الغطاء عن الصور الحقيقية لهم، وقد عرفهم القاصي والداني بمستوياتهم الهزيلة وباخلاقهم المنحط ولا دينيتهم المعلنة وعرفوا مدى تأثيرهم السيء في السواد الاعظم من الناس. بعد أن فرضهم الحزب أئمة وأوجب على الشعب المسكين الاقتداء بهم.

منهج البعث

الشعب العراقي شعب مسلم يفتخر بإسلامه شأن بقية الشعوب المسلمة، ومن المعلوم ان المسلم يتميز عن غيره بعقيدته وسلوكه وهدفه، كما ان الطريق الذي رسمه الاسلام واضح المعالم لدى الملمين بمسائله، وان خفيت مسائل كثيرة منها على البعض جراء الاهمال والانشغال بأمور دنيوية بحتة. وجدير بالمفكر المسلم المهتم بإسلامه ومجتمعه ان يسعى بكل مباح من الوسائل في بيان الخطوط التي رسمها الاسلام قولا وعملا سواء على شكل مناهج تتابع تفصيلاتها في مراحل دراسية تنتهي بخبرة عالية، أو على شكل فكرة تضمن كامل قوانينها تتكفل تطبيقها فئة كفؤة وبتدبير حكيم لا يد للأهواء فيه. وبتعبير آخر حكومة اسلامية بحتة تنظر الى الحياة بمنظار الله تعالى تتقيد بحدود الله لا تأخذه في سلوك طريق الحق لومة لائم ولا تهز اركانه وساوس الخناس مهما عظمت، وليس المطلوب من هذه الفكرة نظريتها فحسب كما عليه قوم، بل المطلوب الباسها ثوب العمل في حدود لا تطالها يد المتلاعب أو الجاهل كما فُعل من قبل. وهل ينكر أحد التطاول على الاسلام عبر سني حياته من افراد وفئات قالت فيه ما اشتهت انفسها حتى باتت فرق المسلمين من الكثرة حداً اشتبه فيه الامر على المسلمين انفسهم قبل غيرهم، فلم يميزوا اية فرقة هي على صواب، وباتت كل امة تلعن اختها في الدنيا وكل فرح بما لديه.

كان لهذا التمزق الاثر الفعال في ضياع الاسلام، وسيتحمل كل طائفة ـ بل وكل فرد ادعى العلم بالاسلام وكتب نظريته الخاصة ليجر وراءه افواجاً من المسلمين ـ مسؤلية ضياع الامانة. ولقد سمعنا ورأينا عبر التاريخ كيف استغل الكفر هذا التمزق وتحكم في رقاب المسلمين، وكيف حلا لمن طمع في كرسي الرئاسة لبس قميص النسك ليتربع على عرش السلطان، حتى اذا بلغ المراد، طعن الدين طعنة عجز المسلمون عن تداوي جرحه، وهكذا حتى وصلنا اليوم الذي رأينا فيه غربة الاسلام وغياب الحقيقة.

ان الفئات التي حكمت بلاد المسلمين عبر القرون كانت كلها تدعي الاسلام فمن امية التي ادعت احقيتها بخلافة الرسول لتتمكن بهذا الادعاء من تحكيم يزيد في

المسلمين ليقوم بعد استلام الامر بقتل ابناء الانبياء ورمي بيت الله بالمنجنيق ثم يضع النقاط على الحروف بقوله: لا خبر جاء ولا وحي نزل، الى بني العباس الذين لعنوا الامويين لما هموا بالكرسي المتزلزل تحت خلفاء امية مستغلين الاسلام ايضاً وقرابتهم من رسول الله(ص) لكسب تأييد الناس، فبرزوا للناس بادي الرأي اناساً يتطهرون، فلما استقامت لهم الامور حللوا ما حرم الله وانشغلوا بملذات الدنيا وفاقوا امية تعدياً لحدود الله وملؤا الارض فساداً. وهكذا كان لكل من سعى في الحصول على القدرة منهجاً يُرى ظاهره اول الامر مليحاً والايام تفضح بعد حين بواطنه، وذلك يدل بوضوح على غفلة المسلمين في امورٍ هم مسؤولون عنها.

لقد باتت الغفلة هذه سنّة للمسلمين رغم كثرة العبر ورغم ادعاء التقدم والثقافة، فما اكثر من يدعي العقل والفطنة في زماننا، حتى ان الواحد منهم يمقتك ان نصحته ويحمل عليك ان حذرته لانه يرى نفسه فوق ذلك، فلا الأمر بات بهاد ولا النهي برادع، ولا ادري، اين يكون محط الرحال أفي وادي الحسرة، أم على قلل الاعتبار....

ومنهج البعث مثال جديد يضاف الى عشرات المناهج التي أثبت التاريخ عقمها وزيفها، وقد وضع في جو ملائم اذ اصبح الناس كالذي يتخبطه الشيطان من المس بسبب ما جرعوه من يد الكفر، وبات النفاق ديدنهم فتركهم الله في ظلمات لا يبصرون، فاصبحوا مطمع اللصوص، ولا ادري متى أراد اليهود والمسيح للمسلمين خيراً كي نحسن الظن ونعذّر مَن صفق من المسلمين لمنهج عفلق، وكيف استساغ من هو في ادنى مراتب الايمان الانصياع الى أوامر الكفار وهو يتلو قوله تعالى: { ما جعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا }.

ونفاق منهج البعث غير خفي على احد، فمن ترويج سلسلة التوجيهات الاقناعية لأصل الفكرة، وما تحويها من قوانين عصرية للحياة الجديدة التي يتوخاها الحزب للشعب، وشرحها باسهاب كاهداف معلنة لبعض الكوادر وعامّة الناس، واظهار الوجه الايماني والانساني، واطلاق شعارات المصلحين المؤمنين، إلى اهداف غير معلنة خاصة بالمؤسس ونفر من اعوانه المجندين للعمل تحت ذلك الغطاء الموهم من اجل

تحقيقها، مشبعة بالكفر والوحشية والضلال، بعيدة كل البعد عما هو صلاح، عبروا عنها بالعمل خلافاً لشعاراتهم، وقد بذلوا كل طاقة في استغلال الفراغ الفكري للاعضاء المنتمين الى الحزب، لترسيخ السفسطة البعثية في اذهانهم ، يوجهون تناقضاتهم بأكاذيب أقبح من فعالهم، ليستعينوا بهم في تطعيم ما أمكن من العقل

الاجتماعي الفارغ ببراعم الشر السام في موهومات محلاة بالعسل المصفى وبأساليب متلونة، كل تلك كانت من سمات المنهج البعثي البارزة والتي اوجبت ضرورة التكيف مع الاجواء لضمان البقاء. وقد اباح الحزب في منهجه كل وسيلة تعين على الوصول الى الهدف، فلا ينبغي للدين أو العقل أو القانون الوقوف في طريق الحزب ما دام الطريق موصلاً لما يريد، فالكذب مباح وان كان حراماً، والارهاب واجب وان كان ممقوتاً، والفضيلة رذيلة ما دامت تعترض السبيل، وكلما استحسنه البعث فهو الحسن وان قام الاجماع على قبحه، وما استقبحه فهو القبيح وان وقّع الانس والجن على حسنه، وأوامر البعث واجبة التنفيذ وان كانت مخالفة للعقل والمنطق وعلى كل بعثي الالتزام بمبدأ نفذ ثم ناقش.

هذا هو المنهج العملي لحزب البعث، عاشها البعثي واستذوق مرارتها غير البعثي، ودع عنك النظريات المسطرة في اسفار البعث فانها شعارات للدعاية، منهج مريب لم يثبت في موقف انه أراد الخير لشعب خدع بطلائه، ولم يُر في بأساء شارك الناس بؤسهم، بل قلما نرى ضرّاء نزلت في ساحة القوم لم يكن للحزب فيه اصبع، فبئس النهج الذي ضحى بامّة قرباناً للاجنبي، وتعساً لثلة باعت نفسها بثمن بخس لتكون يد العدو في البطش بابناء الامة. انه نهج الشيطان الذي دعا الناس للفساد والافساد ـ الا اني دعوتكم فاستجبتم ـ ولبى هذه الدعوة كثيرون ومنهم هذه الشرذمة التي فسدت في الارض واهلكت الحرث والنسل، دخلت المراعي الآمنة بمكر الثعالب ثم انقلبت وحشاً كاسراً لا يرى فيه من الضمير رسماً ولا من الرحمة اسماً، لا يرويه دم ولا يشبعه مال، وما زال لا يشغله عن قطع الرقاب شاغل ولا يحوله عن نهب الاموال حائل، فما اجرأه من نهج على الانسانية وما اقبحه من مذهب على التاريخ.

أهداف البعث

يمكن تقسيم اهداف حزب البعث إلى صنفين من الاهداف بحسب النظرة الدقّية ودراسة الحزب من وجهتيه النظري والعملي وكما يلي:

- ـ الاهداف المعلنة.
- ـ الاهداف الغير المعلنة.

ونحن نتعرض باختصار لهذين الهدفين بلغتيهما المختلفتين، لغة الشعار ولغة التطبيق.

الاهداف المعلنة:

الاهداف المعلنة لحزب البعث هي: الوحدة والحرية والاشتراكية، كما طبل لها الحزب بلسان عربي مبين. ولكن المتتبع يرى ان هذه الالفاظ أطلقت وقُصِد منها غرضان فسر البعث غرضاً وكتم الثاني، وعلينا هنا بيان هذه الاهداف على ضوء تفسير البعث لها اولاً، ثم بعد ذلك إمرار ممحاة الطلاء على صفحة الخديعة لكشف الجوانب المبطنة والمقصود الواقعي من تلك الاهداف، كما يوحي به الجانب العملي من فكرة البعث، وتؤيده الوقائع التي طبعت آثارها في المجتمع العربي والاسلامي، لنقف على حقيقة الضجيج المفتعل في ارجاء الوطن العربي لترويج الفكرة والبحث عن الارضية المناسبة هنا وهناك لزرع بذورها بجد ونشاط.

١ ـ الوحدة:

يفسر البعثيون هدفهم من السعي وراء تحقيق الوحدة العربية بقولهم: ان العرب ومنذ سالف الزمان امة متميزة بخصالها الحميدة ومدنيتها العريقة وقوتها المشهودة وكلمتها المسموعة وأصالتها المعروفة ونصرة بعضها البعض ضد العدو دون حدود، كانت كذلك حتى جاء الاسلام فأضاف الى مجدها العريق نور الايمان وجعلها خير امة اخرجت للناس. لكن العدو الحاقد كان لهم بالمرصاد حسداً وطمعاً، ففرق كلمتهم وبدل قوتهم ضعفاً وثقافتهم جهلاً حتى تمكن منهم، فسلب خيراتهم، وذللهم

بعد العز، وجزأ بلادهم، فما باتت لهم كلمة تسمع ولا راية ترفع، وطرق التشرذم والاندثار ابوابهم، وما زال الاجنبي المستعمر يجول ويصول على بقايا احيائهم، وهم الاسم الذي تبقى من العرب بعد ضياع الاصول وتقليم الفروع، وقد اوشكت لغتهم التي بها عرفوا عرباً على الضياع بكيد من العدو.

وقد رأينا عبر القرون حركات عديدة سعت في انقاذ العرب لكنها عجزت عن تحقيق اهدافها لضحالة فكرتها وعقم طريقتها. وها شمر عن ساعد الجد آخر المطاف نفر ممن نذر نفسه من اجل انقاذ العروبة من خيار مفكري العرب لبعث العرب من جديد، وتتمثل هذه الفئة الصالحة في حزب البعث العربي الاشتراكي. وأول هدف يجب ان يحققه حزبهم في هذا الطريق هو جمع شمل العرب تحت لواء واحد ليكونوا يداً واحدة، وبذلك يمكن استعادة قوة العرب الحقيقية التي بها يمكنهم بناء حضارتهم التي مزقها الاعداء من جديد، وان يثبتوا للعالم المتحضر مرّة اخرى انهم امة عريقة ذات تراث اصيل قد سبقت الامم، وكانت حضارتهم اصلا لكثير من الحضارات الاخرى التي تلتها، وهذا هدف نبيل يعتز به كل عربي، بل يجب على كل العرب تأييد هذا الحزب والتصفيق لمروجيه.

٢ ـ الحرية:

ان نظرة البعث الى الحياة ـ كما يدعيه الحزب ـ نظرة شمولية، فيشمل ظل خيمة البعث الانسان العربي بغض النظر عن طريقته ومذهبه، معللين ذلك بقولهم ان الوطن العربي الكبير جامع لمختلف المشارب من العرب، والرؤية من نافذة ضيقة لا يلائم ودعوة البعث لانقاذ كامل الامة من قيد العبودية والظلم الاجتماعي، لذلك لا يتقيد الحزب بدين أو مذهب في احكامه وقوانينه بل له دينه الخاص به، فمادام الاضطهاد قد عم الجميع بفعل الاستعمار، وما دمنا رفعنا راية التحرير فلابد من تحرير الجميع، ولذا ينبغي ان تكون النظرة الى الحرية من مفهومها الاوسع، وعلى هذا الاساس يعلن الحزب حريات متعددة نذكر منها:

أ ـ الحرية الدينية: ولكل انسان الحق في اختيار دينه كما يشاء ويعمل بطقوسه دون

مزاحمة، وكل الاديان والمذاهب حرة في طقوسها واحكامها.

ب ـ حرية الفكر والرأي: وتعني ان كل مفكر له الحق في التعبير عن رأيه بحرية تامة كما ان الحزب يرحب بالنقد البناء ويعتبره عاملا مهماً في طريق الوصول الى الاحسن.

ج ـ حرية العمل: فليعمل كل على شاكلته، والاعمال جميعها مباحة الاّ ما حرّمه البعث لاما حرمه الشرع والعرف، فالربا وبيع الخمور والقمار وبيوت الدعارة وغيرها كلها اعمال مشروعة ومباحة كسائر الاعمال المحترمة.

د ـ حرية المرأة: ويرى البعث ان لا فرق بين الرجل والمرأة، فالكل متساوون في الحقوق، وللمرأة ان تتصرف كما تشاء كما ان الرجل حر في تصرفه، فلا قيمومة للرجل على المرأة ولا قيود تقيدها في عملها وعلاقاتها ولبسها وخروجها، ويمنع تعدد الزواج ـ وكان هذا القانون سارياً حتى مطلع القادسية ـ وان الطلاق بيد المرأة كما هو بيد الرجل، والتسفر من سمات التطور ينبغي ترويجه بل يجب التحرر من قيد الحجاب وو....

هـ ـ الحرية الاخلاقية: ولا ضابطة لها اذ ليس ثمة اخلاق خاصة مخترعة للبعث سوى ما تخلق به المجتمع وهي الاخرى مطموسة المعالم، فمخالفة الاصول الدينية والعرفية شيء مألوف ولا يرى الحزب ضرورة في ردع المخالفين لتلك القواعد والأصول بل يرى العكس وان كثيرا من تلك المسائل الدينية والاعراف الخاطئة هي التي ادت إلى التخلف عن ركب الحضارة وعليه فلا يمانع الحزب من ترويج المخالفات تلك والتي تعتبر في الواقع من مظاهر التمدن والثقافة في نظر الحزب، فلا مانع اذن من فتح ابواب الحانات وبناء الملاهي وغيرها.

و ـ الحرية السياسية: اذ يحق لكل الفئات السياسية التي لا تكن العداء لحزب البعث ان تزاول اعمالها بتشكيل التنظيمات واصدار النشرات دون مضايقة.

هذه موارد ذكرتها بحسب التفسير البعثي المعلن للحرية وسنتلو عليكم انباء ما وراء هذا التفسير قريباً ان شاء الله.

٣ ـ الاشتراكية:

وهو الشعار الذي لم يُر في العالم بأسره تطبيقاً عملياً ناجحاً لمفهومه. استلهمه البعث من الاسياد ويراد منها حصر القدرة المالية في قبضة الدولة والقضاء على الطبقية في المجتمع، ويدعي البعث شأن انصار الاشتراكية ان مظاهر البؤس والحرمان والظلم الاجتماعي ناتجة من الانظمة الاخرى الحاكمة حيث تمركز الاموال عند جهة في حين تحرم جهة اخرى من ابسط الضروريات لذلك يرى البعث فكرة الاشتراكية في اقتصاده حيث تقوم الدولة بالاشراف المباشر على توزيع الثروات في المجتمع فيحقق بذلك العدل الاجتماعي ويجنب الشعب سلبيات الرأسمالية وغيرها.

هذه هي مجمل اهداف حزب البعث المعلنة، وقد تبدو جميلة بألفاظها مغرية بمعانيها بالشكل الذي يفسرها البعثيون في نوادي اعلامهم. ولكن السؤال المهم هو: هل جاء البعث واقعاً لتحقيق هذه الاهداف؟ وهل سعى عبر هذه السنين الطويلة بكلّ ما حمّل الشعب من متاعب وآلام في تحقيق هدف واحد منها لمصلحة الشعب حقاً؟ وهل كانت وحشية السبل التي اتّبعها الحزب وضعضع بها أركان المجتمع العراقي هي الصراط المستقيم لبلوغ اهدافه، ام كان وراء كل صنيع هدف خفي لم يهتد اليه عقول المغرر بهم من الذين جندوا أنفسهم جهلاً وطمعاً في خدمة عدو قاتل ليكونوا عوناً على شعبهم ووطنهم؟.

هذا ما سنحاول القاء الضوء عليه في الموضوع الآتي عسى ان نستخلص من مأساة الشعب العراقي المظلوم عبرة تعتبر بها الشعوب الاخرى المبتلاة بمثيلٍ لحزب البعث من الافكار الاستعمارية والنظريات المزينة بصبغة الوطنية والتقدمية وخدمة الشعوب.

☚ الأهداف الغير المعلنة:

اشرنا في الصفحات الاولى الى طرق استحواذ الدول القوية على مقدرات الشعوب الضعيفة، وقلنا ان الاستعمار كان يلتجئ الى استخدام قواته في القهر والغلبة، ويباشر بنفسه على السلب والتحكم، فضاقت الشعوب من مرارة الظلم وملّت من تلقي

الاوامر من الاجنبي الذي لا يرحم ورؤيته وهو يدنس ترابه وينهب خيراته، وبلغت المرارة حداً بدأ معه الصبر في النفاذ وظهرت بوادر الانتقام وتحسس المستعمر بالخطر، فعزم على تغيير النهج وسارع كل لص منهم في البحث عن الخطة المناسبة البديلة لتغيير روية الهيمنة مع الحفاظ على المكتسبات.

وتسابقت القوى فيما بينها في الكيد مستغلة الفرص للنيل من بعضها البعض. وبدأت بتوزيع الرؤساء والملوك والسلاطين على الدول بعد الاعلان عن استقلال الدول وتحرر الشعوب، وهكذا تم تحوير العملية الاستعمارية من الحكم المباشر الى الحكم بالوكالة من قبل حكومات لا رأي لها في شؤون بلدانها وانما تستلم التوجيهات من الاسياد فقط فالمواقف السياسية والعلاقات الاقتصادية ومناهج التعليم والنظام الداخلي وغيرها من الامور إنما تطبق بوحي من وراء الحدود.

إن تحوير الاسلوب لابد منه مع تطور الزمن، فقد باتت فئات من الشعوب تدرك شيئاً فشيئاً التقلبات الدولية ولربما اطّلعت على خيوط اللعبة الجديدة، فلابد اذن لمحترفي لعبة الشطرنج من تغيير خططهم بين حين وآخر للتمويه وتفويت الفرصة على العدو المحتمل لتضمين الامن لامد اطول، اذ ربما استغل طامع آخر اولئك النفر المتطلع للدخول من النافذة، وهذا هو السر الكامن وراء تبديل الحكومات وظهور الانقلابات غالباً.

والعراق لقمة دسمة لا ينبغي تركها، لذا نرى الصراع واضحاً في ساحته عبر ادوار الحكم وكانت اصابته هذه المرّة بسهم البعث العربي. فما هو الهدف من الرمية، ومن وراءه؟ وماذا خلف الضجيج؟ أما الهدف فواضح وقد اشرنا اليه اذ ما هو إلا شبكة اريد بها الصيد الوفير. وأما الذي وراءه معروف العنوان مجهول الشخصية انه ولد غير مشروع ينتسب الى اب شرقي تارة واخرى يكنى بابن الغرب.

وهكذا ضاعت اشتراكيته بين الاشتراكية الشيوعية والرأسمالة الغربية فمن جهة الشعب لابد من تطبيق الاشتراكية وتحديد الملكية ومن لا يعمل لا يأكل اما من جهة اعضاء القيادتين وعشائرهم فباب الملكية مفتوح بغير حدود والاقطاعية الملعونة باللسان هي المحبذة قلباً والمطبقة قالبا في تكريت وهيت وعنة وغيرها. ولهذا

اختلف الناس واقعاً في هوية البعث بين هذا وذاك، فمن حرارة العلاقات العراقية الروسية قالوا ان البعث شرقي، ومن سجود اقطاب الحزب للغرب واستلهامهم المدنية منه قالوا هم امريكان. ولا يبعد ان يكون البعث وليد عقد خاص في سوق مشتركة للاستعمار، بدليل انا رأينا القطبين المتصارعين قد تصالحا في العراق للدفاع سوية عن حزب البعث حين بان الضعف في عسكره ابان الحرب العراقية الايرانية، تلك الحرب التي ساهم الطرفان في تغرير العراق لشنها على جمهورية ايران الاسلامية. وأما الضجيج فهو الذي يهمنا وعنيناه بهذا الفصل والمقصود منه الضجيج المفتعل لترويج اهداف الحزب والتي بيّناها على ضوء تفسير البعث فما هو المراد الواقعي من هذه الاهداف؟.

لا شك ان المناورات الاستعمارية لا تكون على نسق واحد بل هي مختلفة الاشكال والاهداف، ومن جملتها خطة الكر والفر والتضليل، ولا شيء أضل للشعوب مثل الضرب على الاوتار الحساسة واستغلال نقاط الضعف بعد ايجادها، فشعب يرضخ تحت ارهاب حكومة، يتطلع الى من يتفوه بوعد الحرية، وامة تتضور جوعاً من جراء سياسة اقتصادية، تصفق لمن يلوّح لها بقرصة خبز وهكذا. ومصيدة رخيصة مثل هذه غير بعيدة المنال عن القوي الملي، والشعب العربي عموماً يعيش حالة يأس وقد علا صراخه بسبب اللكمات التي تلقاها من يد الاعداء فهل ينتظر المستعمر رفسة الموت منه ام يفكر في ثوب جديد؟ واذا فكر في حيلة فكيف تكون ومن اي باب يدخل هذه المرة؟ لنرى كيف سعى المستعمر في هذا المضمار الاستفادة من شعارات الوحدة والحرية والاشتراكية وبعبارة أخرى أهدافه المخفية وراء هذه الشعارات.

☚ هدفه من تحقيق الوحدة:

لقد نظر المستعمر نظرة في بيت العرب ليرى الجرح الذي منه ينزفون، ويسمع صراخ المستصرخين ليعلم الباب الذي منه يشتكون، فعلم انهم يئنون من الفقر وتؤلمهم الفرقة، ويشكون الى الله ارهاب السلطات، وبدأ على ضوء ذلك نسج خيوط الشبكة، إذ لابد من تغيير ولابد من ابطال جدد لتمثيل الفصل اللاحق يتم اختيارهم

بدقة، فينبغي ان يكونوا من العرب اولاً ومن اهل الخبرة والفن من الذين يمثلون الادوار بشكل جيد ثانياً، ممثلين يجيدون البكاء على الاطلال وذرف دموع التماسيح على المصير الضائع للعرب وعلى تمزقهم واضطهادهم وجوعهم وموتهم الوشيك. وهكذا نادى منادي الغيب ببعث العرب من بعد موت وخلود رسالتهم.

ووجد المستعمر عفلقاً واعوانه خير من يمثلون هذا الدور ومهد لدخول موكب البعث ارض العرب تحت جنح الظلام وبدأ بمناجاة الغافلين في دعاء طويل، وسار بعض العرب نحو صوت المزمار السحري وهم نيام، حتى اذا بلغوا ارض الميعاد انتبهوا وقد اشرقت شمس جديدة ـ في تصورهم ـ في افق من آفاقهم، فهل اقبل الخير وولّى الظلام؟؟؟. وقاسمهم الشيطان اني لكم لمن الناصحين فدلاهم بغرور صوب المجهول، صوب الوحدة، بأمل ان يلف شباكه هذه المرّة كل العرب، فان كيساً كبيراً واحداً خير من اكياس متفرّقة فهلموا ايها العرب الى المصيرالمحتوم، فادارة واحدة افضل للاستعمار من ادارات شتّى لا يؤمن شرها، ومهام السيد هذه الايام كثيرة في شرق الارض وغربها، لا تزعجوه بتفرقكم فينشغل بكم عن غيركم، واتحدوا ايها العرب لتكونوا قوة يرهب بكم السيد عدوه، فالنزاع على البقاء بلغ ذروته وسيدكم يريد البقاء.

هذا هو مغزى دعوة البعث الى الوحدة، انها دعوة لتوحيد العرب لا لاجل العرب بل لاجل خدمة الاسياد، ودليلنا على زيف الادعاء ما قام به البعث حين يئس من تلبية العرب لاراجيفه حيث مزّق صفوف العرب بين عشية وضحاها بضربة قاصمة لا قبل للعرب بها فأوجد بذلك في صفوفهم صدعاً لا يُرأب. ولا ندري اين صارت شعارات وأناشيد الوحدة التي تغنى بها البعث طويلاً والتي ملأت اركان الدنيا وصدرت منهم بنبرة الناسكين المخلصين. أو لم يكن سعي البعث لزجّ العرب في حرب ضد الجمهورية الاسلامية باسم القادسية خدمة للاستعمار وهل غزو الكويت وضرب المملكة العربية السعودية ودول الخليج الا ادلة على كذب ادعاء البعث. فالحقيقة هي ان الاسياد الذين يحكمون البلاد العربية مختلفوا الاذواق والاهواء فتحايل بعضهم في الاستحواذ على العرب فرسم هذا الخط للتمويه على العرب ليسهل عليه عملية السطو. ويبدو ان الرقباء أو الشركاء قد التفتوا الى هذه الحيلة بعد ان تمكنت الفكرة من ايجاد

موضع قدم لها في الارض العربية ولهذا نرى البعث في تراجع مستمر بعكس ما كان عليه قبل انفضاح امره، وان فروع الحزب في البلاد العربية اما معطلة بالموة أو مراقبة بشدة.

☚ الهدف الخفي من الدعوة إلى الحرية:

وهي السم الذي يريد البعث دسه للعرب جميعاً بعد ان قتل به شعب العراق. فالمجتمع العربي مجتمعٌ مسلم يجري الاسلام في عروقه رغم تهافت اغلب ابنائه على الدنيا وزللهم في مزالقها، فالعقيدة راكدة في قلوبهم ومعالمها واضحة لا لبس لأحد فيها، اعتنقه الناس طوعاً ويفتخرون بالانتماء اليه.

ان هذا الاسلام الحاكم على الجو العربي هو عقبة كبيرة في طريق الكفر العالمي الذي يسعى بجد من اجل استلام زمام الامور في دول العالم. فهم من جهة عقيدتهم معادون للاسلام يكيدون للنيل منه، ومن جهة اخرى مستطمعون في الارض الاسلامية والمسلمين، وبلوغهم الاهداف مع بقاء الاسلام امر لا يمكن تحقيقه، فلماذا لا يستغل العدو غفلة المسلمين عن دينهم بعد تخديرهم بمخدر فعال.

وهكذا بدأ طبيبهم بعلاج داء المسلمين بعد ان اجبرهم حمى الاضطهاد والظلم الاجتماعي على البحث يميناً وشمالاً عن طبيب معالج وكان في رأس قائمة الدواء شراب الحرية، حرية يتطلع المسلم الى سوقها مرغما بسبب سوء ما ناله دون التوجه الى مضاعفاتها فليتحرر المسلم من كل قيد، قيد الحرام والحلال، قيد الاصول والاخلاقيات، قيد الحكمة والتدبير، فما عليه الاّ ان يأكل ويشرب وينام ويتنقل ويعمل بأمان، هذا غاية ما يريده المسلم اليوم في ظل الارهاب والجوع الذي ذاقه من يد الاستعمار المداوي، ولا حق لاحد ان يحدد الحرية التي وصفها طبيب الاستعمار، بان يرتضي بعض الحرية، ويختار طوعاً القيود التي فرضها الدين والاخلاق فذاك الذي يرفضه دعاة الحرية لانهم يريدون الحرية الهادفة التي توصلهم الى مآربهم، لذا نرى المنقذ الجديد البعث العربي يحارب القيود التي يرغب الناس فيها، فمن يتقيد بدخول المساجد فهو جاسوس يجب قتله ومن يتقيد بمعايير النبل والشرف فهو متخلف مدسوس يجب تأديبه ومن دل على خير فهو مزاحم لحريات الاخرين وجبت ازاحته،

هذا ما رايناه من حرية البعث، فكم من الوف قتلوا لا لجرم سوى انهم كانوا من المصلين، وكم من الوف سجنوا لانهم امروا بمعروف أو نهوا عن منكر، وكم من العلماء اعدموا ظلما من غير سبب وكم من مئات الالوف شردوا وطردوا من مساكنهم لانهم قالوا ربنا الله.

فهنيئا للعرب والمسلمين بحرية البعث. ومقابل كل ذلك وتحت عنوان حرية الاديان لا بأس للاساقفة من ضربهم النواقيس ليل نهار، ولا مانع للكهنة من تجديد العهد في صوامعهم بدوي المزامير فلتحيا اليهودية والمسيحية في ارض الاسلام تحت ظل حرية البعث ولتعش الكنائس والاديرة، والموت للمسلمين والخراب لمساجدهم. فما اظلمها من حرية وما اقساها على الاسلام في ارضه، وماذا يمكن ان يستنتج المتأمل من حرية حزب البعث بعد هذا الواقع المرّ. لقد قال الله تعالى في كتابه الكريم {وقل للمؤمناتِ يغضضن من ابصارهنَّ ويحفظن فروجهنَّ ولا يبدين زينتهنَّ الا ما ظهر منها}.

☚ وتقول حرية البعث ان الحجاب من سمات التخلف والرجعية.

وقال تعالى{ الرجال قوامون على النساء }.

☚ ويقول البعث عكس ذلك.

ويقول الله تعالى{ انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه}.

☚ ويقول البعث للناس ان اعملوها بحرية وامان.

وقال تعالى { ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب }.

☚ وحرية البعث تقول بغلق المساجد وقتل العلماء ومحو الشعائر واباحة المحرمات، فلو أحصيت حانات الخمر في مدينة بغداد لرأيتها اكثر من مساجدها.

وقال تعالى { لا اكراه في الدين }.

☚ ويقول البعث (من لا يدخل خيمة البعث ليس له حق الحياة) وعلى لسان كبار مسؤليه. ومن جملة حريات البعث حرية الفكر والرأي وفي تطبيقهم

لشعارهم هذا لا ينبغي لمفكر لا يخضع فكره لخزعبلات البعث ان يبقى على قيد الحياة، والعشرات من خيار المفكرين والعلماء ممن اعدمهم الحزب بسبب تعبيرهم عن آرائهم خير دليل على ما نقول.

فأية حرية هذه التي يعلن عنها البعث؟ أبعد الذي رأيناه نصدق نوح ضمير مفكري البعث على اضطهاد الشعب العربي المسلم؟ ام نقول ان الحرية ثغرة فتحت في ساتر المسلمين للهجوم على الاسلام في عقر داره؟ والحق ان الهدف الغير المعلن من طبل الحرية هو هذا الاخير ولقد اثبت الحزب ذلك عملياً.

ان هذين الهدفين اعني الوحدة والحرية هما من اهم الامور التي يحتاج اليها المسلمون والعرب في الواقع ولأنهما مورد الحاجة فقد استغلت بخباثة لتكتيف العرب واسرهم بها وهم لا يشعرون ولولا فضل الله على المسلمين بهتك استار العملاء المجرمين لكان الويل في انتظارهم.

☚ واما الغرض من الاشتراكية:

فهي المصيدة الواقعية التي اعتمد عليها العدو في تحقيق غرضه، فلا ينبغي ان تكون الاموال بيد الناس بل على الناس ان يعيشوا سواسية على قوت البطن لا غير والفائض يجب ان يوهب الى بيت مال المستعمرين ليتصرفوا فيها كما يشاؤون، فليس لاحد من العراقيين ان يملك اكثر من نفقته باستثناء رموز البعث العملاء، فلهم اجرهم من الاموال والعقارات، ولا بأس لعضو القيادة مثلاً أن يملك ربع العراق مقابل خدمتهم الخالصة، فلا يذهب ما يستملكه البعثي سدىً، لان العبد وما في يده لمولاه نعم، لا يحق للعراقي الحر امتلاك الزائد عن قوته الضروري، وقانون الاشتراكية في المرصاد لمن تسول له نفسه تخطي حدودها.

لقد اقتنصت الاشتراكية من العراق وحدها ما تمكن به الاسياد من شراء مواقف دول عديدة لصالح عملائهم، وكذا شراء ذمم عربية في مناطق من الوطن العربي لتكون جراثيم الوباء في اماكن تواجدها لنشر المرض بين العرب، كما استفاد الاستعمار من بيت ماله في العراق لضرب الثورة الاسلامية في ايران، فماذا يجني الاعداء اكثر من هذا،

ولئن تمكنوا من مدّ سماط الاشتراكية الى خزائن العرب ـ وهذا هو هدفهم ـ فقد اوتوا خيراً كثيرا وحصدوا ما لم يحصده احد قبلهم، فما احلى الاشتراكية اذن للاستعمار وما امرّه على الشعوب.

هذه هي الاهداف الواقعية وراء تهريج البعث بهذه الشعارات، ولم تكن حصيلة المكتسبات المادية والمعنوية عبر عمر البعث غير تخسير بالنسبة الى هذه الشريحة من العرب والتي ابتلت بتجربة البعث. وبات المتعامل مع هذا النظام ـ سواء من المنتمين الى صفوفه أو غيرهم ـ على يقين بمخاطر النتائج المتوخاة من مسيرة البعث بعد تشخيص الايادي التي تقف وراء الحزب. والجميع باستثناء الرموز يتطلع الى يوم الخلاص من بلاء نزل بساحتهم بسبب جهلهم.

الغاية تبرر الوسيلة

تتفاوت انظمة الحكم في طرق تعاملها مع الشعوب، فمنها من استطاعت تطبيع شعبها على منهج حياتي خاص لا يتعارض مع الاسس التي بني عليها نظام الحكم، باستخدام طريقة الترويض التي تسوق الشعب صوب الخضوع الطوعي لبنود قوانينها المجعولة اساساً لتحقيق اهداف خاصة بمذهب النظام، فلا يلاقي مثل هذا النظام متاعب كبيرة اثناء تحميل مراده على الشعب، وبالتالي لا نجد القهر في حدود تلك الانظمة بالاساليب التي نعرفها وواقع الحال في مثل هذه المجتمعات ـ خارج حدود تعريفهم الموسوم بالتمدن ـ هو انهم سيطروا على شعوبهم بطريقة سجن العقول ضمن خطة ترويضية شأن الحيوانات المعلمة، وهي جريمة في حق البشرية اضافة الى كونها صياغة دنيئة اثبتت ضحالة المستوى العقلي والحضاري لتلك المجتمعات. وهذه الحكومات التي روضت الناس على تلقي مطاليبها استسلاماً ودون اعتراض تكون غالبا غنية عن استخدام القوة والعنف في تطبيق اوامرها.

ومنها من لم يحالفها الحظ في ترويض الشعب الدرجة المطلوبة، وانما نالت نصيباً محدوداً من النجاح، فترى نهج هذا النظام مثقفاً ليناً تارة ووحشي المطلع تارة اخرى.

ومنها التي حُمّلت على الشعوب فهي غير نابعة من أصل ولا هي محدودة المعالم، بل مصائد سميت بأنظمة فرضت على الدول مغلفة بشعارات يرددها بعض العمال وقد كشفت الشعوب زيفها بعد فوات الاوان، فرفضت الانصياع الطوعي لأوامر حكامها. وهذه هي الحكومات المستبدة التي تتفاوت اخلاقياتها بتفاوت افرادها فمنها الحمل الوديع ومنها الثعلب الماكر ومنها الوحش الكاسر.

وحزب البعث الحاكم في العراق من اخس هذه الاقسام والطريقة التي اتبعها في تحميل فكرته الدخيلة خير شاهد، اذ حمّلت حكومتها على الشعب قسراً في ليلة ظلماء، وتبين بعد كشف الغطاء زيف الشعارات وخبث النوايا وارتد الناس على اعقابهم بحثاً عن مخرج، ولما اصطدم رؤوس الحاكمين بصخرة الواقع، ولما تحسس العملاء تلكأ المحكومين في تنفيذ الاوامر، نزعوا بُرد الزيف، وبرزوا بجلباب الحقيقة فإذا هم كلاب مسعورة، تريد اجتثاث جذور الخير وتبيح من اجل ذلك كل مكروه، فقتل النفوس وهتك الحرمات ونهب الاموال كلها وسائل منطقية في نظرهم، ولابد للشعب من ان يدين بدين البعث ولو بحد السيف والويل لمن يقول لا للبعث.

هكذا امتشق جند الرذيلة سيف البطش، وزرعت الرعب في القلوب وانهارت من قساوتها النفوس، فزلت اقدام خوفاً وسلكت اقدام طريق الخنا هرباً من العذاب، وبدأت امراض اهل الدنيا تترسخ في ارجاء العراق من رواج الفجور، وعلقت ارواح المذبذبين بجيد العاريات ورنين الدراهم حتى اعتاد كل على شاكلته، الفاسق طبيعة وجرأة والمؤمن خوفاً وضعفاً، وبلغت قلوب المؤمنين الحناجر وزلزلوا زلزالاً شديدا ونزل حديث ـ القابض على دينه ـ على ارض الواقع، وما كان كل ذلك الا بسبب اباحة البعث لكل وسيلة مهما بلغت دناءة وخسة من اجل التحكم في رقاب الناس خدمة للاجانب، فالحزب دخيل على العراق ومبدؤه مخالف تماماً لمبدأ الشعب العراقي المسلم، وقد بذل هذا الحزب جهده في قتل اخلاق شعب العراق ودينه ليحل محله اخلاق البعث باجبار الناس على سلوك منهجه. ولأجل ان نلقي الضوء على جانب آخر من النظرية البعثية لابد ان نشير الى السبل والوسائل التي استخدمها النظام في تعامله مع الشعب العراقي الذي رفض البعث بعد اتّضاح الامور، وهي بمجموعها تدل على البطش

والارهاب واللامسؤلية فمنها:

١ـ اختيار ايادي البطش من اوباش الناس لتنفيذ الجرائم موفراً لهذه الايادي القذرة مستلزمات العدوان من سلطان ودعم.

٢ـ اباحة القتل على الظن والتهمة في معارضة النظام، اما غيلة أو في زنزانات التعذيب.

٣ـ إكراه الشعب على ترك القيم الاصيلة السائدة تحت شعار بعث الامة وسوقها نحو المدنية والتقدم بهدف مسخ الاخلاق الاسلامية.

٤ـ سن قوانين خاصة في اطار فكر الحزب في مجالات الاقتصاد والتعليم والعلاقات الاجتماعية وغيرها اوكل تطبيقها الى مجلس حكومة لا دخل لاحد من الشعب في تعيين فرد من افراده.

٥ـ بناء قوة نظامية رهيبة واستخدامها في اذلال الناس واجتثاث كل معارض اجترأ على الحزب بقول أو فعل.

٦ـ استخدام اخبث السبل الاستخبارية والرقابية في متابعة الناس ومراقبة كل صغيرة وكبيرة تصدر منهم حتى بات المرء يخاف ظله تحت راية الحزب والثورة.

٧ـ جعل دوائر الدولة مراكز قمع وموظفي الدوائر رجال شرطة فلا تمييز بين دائرة مدنية أو عسكرية أو أمنية، كما لا تمييز بين الافراد، فالجميع يرتدي الزي الزيتوني البعثي والكل يحمل السلاح والحديث في اروقة الادارات جميعها عن الثورة ومنجزاتها وعن المخالف والموالف. وقد لا تميز دائرة عن اخرى اذ لا تجد اية لافتة في واجهة الدوائر تشير الى عنوان بل كلما مررت على مبنى من مؤسسات الدولة تتطلع على الشعارات التي غطت واجهة المبنى (وحدة حرية اشتراكية)، (امة عربية واحدة ذات رسالة خالدة) وهذا غيض من فيض في تعامل البعث مع قضيته وشعبه. واما وسائل تعذيبه التي ثبت استخدامها بالقطع واليقين في سجونه ضد المعارضين المعتقلين فحدث عنها ولا حرج واليك نماذج منها:

اما القتل فللبعثيين طرق متعددة ايسرها الرمي بالرصاص والتعليق على أعواد المشانق وأعسرها الذوبان في حامض الكبريتيك والثرم والتمثيل. واما التعذيب

فسأقتصر على ذكر الطرق التي وجدت آثارها على اجساد الكثيرين من الصابرين على ضرّاء البعث فمنها:

١ـ حرق الجسم بالمكواة واطفاء اعقاب السكائر في العيون.

٢ـ الصعق الكهربائي في اجزاء حساسة من الجسم كالاذن والخصيتين.

٣ـ ربط الايدي من الخلف ثم تعليق الشخص من ذلك الرباط في السقف ولمدة طويلة.

٤ـ القاء المتهم حافياً في غرفة صغيرة ارضيتها من الابر الحادة الطويلة.

٥ـ نفخ البطن عن طريق الشرج بمنفاخ هوائي حد الانفجار.

٦ـ اجلاس المتهم على قنينة غليظة بعد خلع ملابسه الداخلية.

٧ـ استغلال اعراض الناس في انتزاع الاعتراف بجلب زوجة المتهم أو اخته أو بنته وتعريتها كاملاً امامه والوعيد بانتهاك حرمتها ان لم يعترف بالتهمة الموجهة اليه وعشرات الطرق الدنيئة الاخرى في انتظار من القى البعثيون القبض عليه. وهذه امور عادية في سجون البعث، وبات كل عراقي يعرف ماذا يعني الوقوع في قبضة البعث. ومن اجل ذلك يحاولون اتقاء شر هذا البلاء بالتظاهر بالولاء والتصفيق والرقص مع الراقصين وفي غير هذه الصورة يعد العراقي عدواً للبعث والذي ذكرناه من التعذيب في انتظاره.

ان الذي ذكرته هو قليل من كثير اردت الاشارة بها الى الوسائل التي يبررها البعث من اجل غايته الخبيثة وليطلع عليها من لا يعرف هذا الحزب حق معرفته وليتبين مبلغ البلاء الذي اصاب العراق والعراقيين الذين اخذوا على حين غرة ووقعوا في شراك الكفر فذاقوا وبال جهلهم واهمالهم وهاهم يصرخون فلا مسمع ويستغيثون ولا من مغيث. وهذا بعينه جرم آخر، ترى لماذا التستر العالمي على هذه الجرائم وهي منتشرة في ارجاء العالم في عصر عدّوه أرقى العصور ثقافةً واكملها مدنيةً؟! هل ذلك فلتة غير مقصودة ام هو رمز من رموز المدنية الحديثة التي لعنت شريعة الغاب بلسان النفاق.

التغاضي العالمي
عن الجرائم التي ترتكب في العالم

كان الناس ايام الاستعمار القديم يدركون مع تفاوت اسباب سقم المواقف ازاء الاحداث العالمية وما يجري في ساحات الدول الضعيفه، فهم يرون بوضوح التدخل الاجنبي في بلادهم وعمالة السلطات الحاكمة ويلمسون آثار همجية المتسلط الذي تمكن منهم بسبب ضعفهم، فاستسلموا للأقدار وتأملوا طيلة فترة تحملهم للأذى الفرج دون جدوى، ذلك لأن المصالح المادية والسياسية هي التي كانت تتحكم في ضمائر حكومات الدول القوية الحاكمة فلا تجد للأنسانية والعدالة معنى في قاموس السياسة، فالمهم تحقيق المصالح ولا يضير بعد ذلك تدمير اقتصاد بلد أو قتل شعب. ولما كانت القوة هي اللغة الوحيدة في السياسة العالمية آنذاك لم يكن للضعفاء نصيب غير تحمل آلام العبودية والسكوت عما يجري، ولا غرابة في ذلك في ظل شريعة الغاب التي كانت سائدة، انما الغريب ان نرى في العصر الحاضر الموسوم بعصر التقدم والثقافة والمدنية والادعاءات الطويلة مأساة اعمق مما كانت عليها في زمن الاستعمار القديم.

اننا نرى شعوب ما يسمونه بالعالم الثالث تئن من ثقل البلاء وجور القانون في عصرٍ تتحدث فيه الدول العظمى والدول المتقدمة عن العدالة واحقاق الحقوق وفي زمن ضاقت الارض بلجان حقوق الانسان ومحاكم عدل ومجالس مختلفة الاسماء والعناوين. عصر لم نجد فيه الا التظاهر بالانسانية والتمدن، ولم نسمع غير ادعاء السعي من اجل اسعاد البشر، وبازائه نرى العذاب المحدق بالانسانية في ارجاء العالم وعلى ايدي مدعي الاصلاح انفسهم. ومع قليل من التأمل يدرك العاقل سر اللعبة في هذه الظاهرة فبمجرد رفع الستائر عن مسرح العالم الكبير تتجلى فصول المسرحية في اوضح صورها وهنا يضحك من يضحك لمشهد ويبكي من يبكي لآخر وعندها يزول العجب.

ان السكوت العالمي اعلاماً واجراءً عما يحدث ـ رغم كثرة المحافل المصطنعة لاحقاق الحقوق ـ لم يكن عبثاً ولا غير مقصود، فان جذور تلك الخبائث من صنع

القوى المسيطرة على العالم فلا يمكن ان تكشف الغطاء عن امور تفضح امرها أو تعلن عن اسرار تسعى هي في كتمانها بل ولا تسمح لاحد مهما كان التفوه بحقيقة ما يدور خلف الكواليس، وبات هذا الحظر قانوناً عاماً في العالم، والمخالف الذي تجرأ بفضح بعض الحقائق وتحدى بالصراخ في وجه الطغاة يرى مجلس الامن والامم المتحدة ولجنة حقوق الانسان والاعلام العالمي كل اولئك في انتظار ادانته ويصدر الحكم فوراً في حقه على انه ارهابي خطير ينبغي تشكيل تحالف دولي ضدّه وتبقى الاحكام تترى معلنة حرباً لا هوادة فيها ولا نهاية الا بالاستسلام أو الموت.

هذه هي سنة الاستعمار الحديث ذلك الاخطبوط الذي ابتلت به شعوب الارض في العصر الحديث، ومن مفردات هذه القاعدة مسألة العراق، فلا غرابة بعد هذا البيان في السكوت العالمي عن الوحشية والهمجية ما دامت تجري لمصلحة الاسياد

ان الذي كان وراء خلق حزب البعث وفكرته الجهنمية لغرض الهيمنة على خيرات العراق وشعبه، لا يهمه ما يلم بشعب العراق بقدر ما يهمه التستر على سر الحزب وارتباطه، وكما ان الاستعمار القديم كان يهتم فقط بجنوده ومصالحه في الدول المستعمرة دون شعوب تلك الدول كذلك هو اليوم في زيه الجديد فالذي يهمه رموزه الذين ينوبون عنه والمصالح التي يجنيها، ويحاول بكل حوله المحافظة على هذا الوجود النيابي ولا يهمه بعد ذلك ما ينال الشعوب من عذاب، فالحفاظ على كتمان امر الاحزاب والافراد الذين انتخبهم لتنفيذ المهام امر لا مفر منه، ابعاداً لتهمة الاستعمارية التي باتت وصمة عيب تأباها المدنية المزعومة التي تروج لها في العصر الحاضر!! لكن السارق سارق مهما تفنن في حرفته أو غالط في طريقته. وتبقى العملية الاستعمارية مرّة في كل الاحوال والظروف سواء بالتدخل المباشر أو بتوسط الايادي اذ لابد فيها من الظلم وفعل القبيح مع الشعوب حيث تستلزم عملية التلصص الترهيب والتجويع وهما اذ بلغا حدهما يتبعان انين الشعوب وضجيجها واذا كانت النتيجة لامحالة تلك الصورة فلا معنى اذاً لإبراز الدور بل لابد من الانكار والكتمان ليبعدوا انفسهم عن سهام التهم مكتفين في الظاهر بترويج الشر الذي سلطوه في خفاء على الشعوب ليظهروه بمظهر الحق المبين جهد الامكان اغراءً للشعوب وتدليساً للعيوب.

إن الظلم في انحاء العالم لم يخفف من عذابه عن الشعوب حتى يومنا هذا بل ربما تعدى حدوده على ما كان عليه سابقاً وقد علت اصوات الاستغاثة من كل مكان تطرق مسامع اهل الدنيا. وقد يحاول احياناً بعض اصحاب الضمائر ممن لاحول له ولا قوة الاستجابة لصرخات المظلومين لكن اصحاب الحول من الدول يلزمون الصمت بل يحولون دون تقديم العون من اية جهة اخرى فلا ينظر مجلس من مجالسهم في شكوى امة ظلمت، ولا يتجرأ بوق اعلامي واحد نشرحقيقة من الحقائق التي تود الدول المستكبرة اخفاءها بسبب هيمنتها على العالم وتسخيرها الالسن والايدي لخدمتها فيجب ان تخفى معالم جرائمها وان عظمت.

نعم لقد سخرت الدول الاستكبارية طاقات العالم ولا تستخدمها إلا من اجل تحقيق مصالحها، واكثر من ذلك انها خرقت قوى مستقلة الظاهر في صورة مجالس دولية كمجلس الامن الدولي، ومجلس الامم المتحدة، ومنظمة الصليب ولجنة حقوق الانسان وغيرها، وما هي في الواقع الا اجزاء من مستعمراتها، فلا تدين هذه المجامع الاّ ما يدينه المستكبر، ولا تجرّد سيفاً الاّ لإعانة الذئاب في استرداد فرائسها من فم الثعالب، والعالم يرى بوضوح ان قرارات هذه المجالس تدور مدار منافع الظالمين، وان المظلوم لا نصيب له من تلك المنابر الضالة المضلة، فهي لا تنعقد الا بأمرٍ من اولئك فاذا جاء دور اختيار الرأي كانت كما قال الشاعر:

اذا قالت حذام صدقوها فإن القول ما قالت حذام

لقد اثبتت المجالس العالميـة، ووسائل الاعلام، خضوعها المطلق لارادة الاستكبار العالمي، حتى انه لم يبق مجال للشك في كونها الجزء المتمم للمخطط الاستعماري للهيمنة على العالم، وقد أوجدوها للتغرير واغواء الشعوب واعطاء طابع الشرعية للأعمال اللامشروعة التي ترتكبها، فهي في الواقع السلاح الأمضى بيد الشر العالمي.

إن نظرة دقيقة في قوانين هذه المجالس ومواقفها من قضايا دولية سابقاً ولاحقاً، تكشف النقاب عن وجهها الواقعي المغطى بشعارات الاستقلالية والانسانية والعدالة، فهل ينتظر شعب العراق خيراً من تلك المجالس بعد الذي يراه؟ وهل يتوقع من تظلماته وقفة شريفة لا يراد مقابلها التذلل والخضوع ثمناً، وهل ينتظر من وسائل

الاعلام العالمية ـ سلاح المجرمين ـ نقل الحقائق بأمانة؟ هيهات ذلك. ربما يسمع هنا وهناك كلمات تشعر بتعاطف جهة خاصة مع قضية ولكن بدراسة جوانب الموقف يتضح ان هذه الكلمات لم تكن الاّ لمصلحة أو طمع في شيء لا غير، فمثلاً حينما تنتقد بعض وسائل الاعلام حزب البعث ـ عندما يبان الضعف في معسكر البعث البتة ـ وتبين جانباً صغيراً من جرائم البعث تراها من جانب آخر تروج لاخ آخر للبعث ليكون البديل، فاذا قال الشعب لا لذاك، قالت تلك الوسائل بلا تردد لا للشعب وانقطع الانتقاد والخطاب.

إن التجارة السياسية ما زالت قائمة على قدم وساق، وسوق الاستغلال رائج اشد رواج، والتنافس على كسب المزيد مستمر، والكل يهتف بالمكاسب وان كانت على حساب الاخرين، فان ذلك جائز ومباح في المنطق السياسي كما ان موالاة الاقوياء سنة متوارثة، اذ ان القوي يجب ان يحترم لقوته وان ارتكب اقبح جناية، فلتهدد امريكا مثلاً من تشاء فهي على حق لانها القوة العظمى وانها تريد الحفاظ على النظام واقرار الامن في الارض فأي بأس في سحق جند امريكا شعب بنما بسبب رفض الرئيس البنمي الجديد الخضوع لأمريكا وأي خلاف في القاء شرطة واشنطن القبض على رئيس بنما الرافض باتهام التجارة بالمخدرات ونقله الى واشنطن للمحاكمة!!! فما اقبح هذا المنطق، ولقد علم الصغير والكبير ان المليارات المكدسة في صناديق رجال المال والسياسة الامريكية قد جمعت من تجارة المخدرات أو مما هو اخس من المخدرات، فلماذا حلّ ذلك عليهم ولا يحل على رئيس بنما؟

لقد جندت امريكا معها الغرب المتملق المتخلف التابع بل العبد، لتذليل العرب بحجة خطأ يرتكبه عميل لهم اسمه صدام ـ ولا ريب لعاقل في ان ما ارتكبه هذا العميل لم يكن الاّ بأمر من امريكا نفسها ـ ليقود جيشاً جراراً تحت شعار انقاذ الكويت ليسحق به شعب العراق دون ان يمس صداماً واعوانه وعشيرته بسوء. ولا ادري ما الفرق بين استعمار صدام للكويت وبين استعمار امريكا لها اذا كانت هيمنة دولة على دولة اخرى جريمة، وهل اصبحت الكويت بعد عاصفة الصحراء حرّة كما يزعمون؟ لقد سكتت المحافل الدولية عن فلسطين وشعبها منذ اغتصابها من قبل امريكا،

واستحقرت مسألة تشرد الشعب الفلسطيني الى يومنا هذا في حين ذرفت دموع التماسيح على سيادة شعب الكويت، واقامت الدنيا ولم تقعدها من اجل استردادها الى أهلها. وهذه مسألة اخرى تكشف النقاب عن دجل السياسة العالمية.

ومسألة اخرى هي مسألة الجمهورية الاسلامية الايرانية فلقد عشت فيها فترة ورأيت من الحرية في هذا البلد ما أخشى عليهم منها ومع ذلك نسمع ابواق الاستعمار تبكي على ضياع الحرية في ايران. والعقل يشهد على انها لاتبكي الحرية ابدا لان الدول المثقفة المتمدنة القوية اثبتت للعالم في البقاع التي دنست بأقدام مرتزقتها انها لا تؤمن بالحرية وانها لا تعرف سوى نفسها وعملائها، وبكاؤها على الحرية الضائعة في ايران انما هو على المشردين من العملاء، وهم بذلك يريدون بناء ارضيّة للتآمر باسم الحرية من اجل ارجاع عملائهم الى الحكم، وعلى هذا اما ان ترضخ ايران لمطالبها الدنيئة واما ان تبقى ابواق العدالة العالمية تلعن ايران حتى وان كانت الحرية بكل معناها مطبقة فيها.

هذه امثلة بسيطة من آلاف الامثلة التي ترشد المرء الى حقائق الاحداث، فاللعبة مكشوفة ولا عجب من التغاضي العالمي عن جلّ الجرائم التي ترتكب في أرجاء الارض، فالأقوياء هم المجرمون والاقمار الدائرة في افلاكها شركاء في الجريمة وسبب مشاركتها اما الخوف من القوي أو الطمع في الحصول على بقايا من اشلاء الفرائس واخيراً اذكر شاهداً جديداً على تواطئ الدول على الجرائم والتدخل السافر في شؤون الشعوب بل وسحقها من اجل تحقيق مصالحها.

الكل يعلم ان العراق بلد يضم مذاهب وقوميات مختلفة وغير خفي ايضاً اضطهاد هذا الشعب من قبل زمرة حزب البعث، والمتيقن ان الاكراد في شمال العراق والشيعة في الوسط والجنوب هم اكثر مظلومية من بقية فئات الشعب، ولقد تعرضت الفئتان لالوان العذاب فترة حكم البعث، وكان القسم الاكبر من حملات البطش والابادة الجماعية من نصيب الاكراد بادئ الامر وبمرئ ومسمع من العالم المثقف في عصر الذرّة ومع ذلك لم نسمع الاّ النزر اليسير من الادانة في قضية الاكراد ومن بعض الجهات خاصة ولم تكن اكثر من مقدار ارتباط بعض مصالحها بالقضية لامن اجل الانسانية، واما قتل الشيعة في الفترة الموازية لمأساة الاكراد، فلن تسمع شيئاً عنها في

محافل العالم المتمدن ولا في اذاعاتها وصحفها بالمرّة.

وهكذا ذبح صدام بأمر الموكلين له شعب العراق الى ما قبل عاصفة الصحراء في حين لزم العالم الصمت وكأنه لم يحدث شيء ولم يُهدر بسيف الجلاد حقوقٌ للبشر ورأينا كيف كان استقبال الرؤوس العفنة التي تتمشدق بالقوة والغلبة لهذا السفاك الاثيم محتضنة اياه في بغداد تارة وفي دولها اخرى كما رأينا وفاءها بتعهداتها في حمايته حيث انهالت على العراق سيل المساعدات العسكرية والمستشارين لتدريب ازلام صدام على ارقى آلات الدمار من البندقية الى القنبلة النووية والتستر على جرائمه بل والدعاية له على انه البطل القومي بلا منازع.

واستمر هذا الموقف المشين من تلك الدول الى ان جاء دور مسرحية حرب الخليج، عندها تغيرت المواقف فجأة وبدأ أصدقاء الامس انسحابهم التكتيكي في جبهات الدعم الاقتصادي والاعلامي والتسليحي، واستمر الانسحاب صوب خطوط المواجهة حتى شكلت ـ بحسب الظاهر ـ جبهة مضادة بل ودقت طبول الحرب حتى افتعلتها واثارت عجاجها واحترق بنارها العراقي البريئ في حين سلم صدام حسين وحزبه من شررها ومازالت امريكا واقمارها تصول وتجول وسط نقعها المثار ولا احد يعلم الى الآن على وجه الحقيقة ماذا جرى ولماذا وماهي النتائج.

وليس هذا الذي اردنا تقديمه هوالشاهد، انما الشاهد في الفصول التي تلت عاصفة الصحراء حيث هب الاكراد والشيعة في انتفاضة لا مثيل لها ضد الحزب الحاكم، فماذا كان موقف العالم ووسائل اعلامه من تلك المسألة؟ حيث تكبدت شيعة العراق من القتلى على يد جند صدام حسين ضعف ما تكبده الجيش العراقي من اصابات في حرب عاصفة الصحراء على يد جيش التحالف، وتحملت من الخسائرالماديّة مالا تقل عن كل خسائر العراق خلال الحرب، ولم تخل مدن العراق من السكان خلال حرب الخليج بينما خلت اكثر المحافظات في حرب صدام من جراء القصف المدفعي الكثيف، ولم تتعرض المقدسات في العراق لاهانة متعمدة من قبل جيش التحالف الكافر بينما اهينت مقدسات الشيعة بالهدم والتخريب المتعمد في حملة صدام، ولم اسمع فترة حرب الخليج بهتك عرض من قبل قوات التحالف في حين هتك جند صدام الاعراض

في مدن كثيرة من مدن الشيعة. ومع ذلك مرّت الاذاعات والصحف والمحافل على القضية مرّ الكرام بكلمات لا تتعدى ذكر الانتفاضة الشعبية ومحاولة صدام قمعها، في الوقت الذي رأينا تجنيد كل وسائل الدعاية العالمية لحرب الخليج وكأن الانسانية التي كانت تسحق بمرأى المتحالفين في العراق هي غير الانسانية التي نالها صدام حسين بسوء في الكويت لتستدعي هذه الاخيرة حرباً عالمية بكل معناها دون ان تستحق الانسانية العراقية ذكرا...

وهذا هو الدرس البليغ في نتائج حرب الخليج والقرارات التي اتخذت ضد صدام فانه لما انتهت الحرب واستتب الامر لصدام بعد قمع الانتفاضة اقتصرت قرارات مجلس الامن الدولي على بعض الشروط التي تخضع صداماً بشكل اكبر لاوامرهم كالحد من قدرة العراق العسكرية ودفع غرامات للجهات المتضررة وتدمير اسلحة الدمار الشامل التي اهدتها نفس دول التحالف الى العراق ابان الحرب العراقية الايرانية واخيراً تحديد منطقة امنية للاكراد في شمال العراق ومنع القوات الحكومية تجاوزحدودها صوب الاكراد وتكفلت الامم المتحدة تطبيق هذا البند بشكل خاص في حين تنصلت عن مسؤلية خط العرض الجنوبي الذي فرض لحماية بعض الشيعة في الجنوب.

ولعمري فقد بات هذا الخط نسياً منسيا حتى ان صداما جال فيما وراء هذا الخط وصال فقتل واحرق واباد بمرأى من التحالف حتى وصل جيش صدام حسين مرّة اخرى الى حدود الكويت بعد اكثر من سنتين ولم تحرك امريكا ولا مجلسها المسمى بمجلس الامن ساكناً سوى ارسال بعض الطائرات لالتقاط الصور فقط، فالمهم حدود الكويت اما حرية الشعوب والانسانية المعذبة فلا شأن للمحافل الدولية بها، اما الملايين المشردة من الشيعة والبيوت المحروقة والاموال المنهوبة والارواح المزهوقة والكرامات المسلوبة فلا دخل لاحد فيها....

فماذا يعني هذا في نظر حقوق الانسان؟ وماذا تقول امريكا والغرب فيما جرى على شيعة العراق؟ احقاً لم يحيطوا علماً بما فعله صدام ـ وكيلهم الرسمي في العراق ـ أم الحق ان ما جرى على شيعة العراق كان بأمر منهم وبهدف ابادتهم لكي لا تقوم

لهم قائمة في العراق بعد اليوم لضمان امن وسلامة عميلهم فانه اذا ابيدت الشيعة لا يخاف على صدام حسين من ثورة شبيهة بالثورة الاسلامية في ايران... ففي اي عالم نعيش، وعلى من يمرر زيف الشعارات الجوفاء التي تصك الآذان من ابواقهم المختلفة؟ لتلجم افواه العبيد وليقض اجراء الدولار ما هم قاضوه، فساعة صحوة الشعوب آتية لا ريب فيها حينها لا تنفع الظالمين معذرتهم ولهم سوء الدار.

وبعد هذا السرد السريع للاوضاع التي سبقت أو قارنت ظهور حزب البعث في العراق، وكشف الملابسات التي احاطت ثورة ١٧ - ٣٠ تموز ودور الاستعمار في الساحة والاشارة الموجزة الى حزب البعث ورموزه واهدافه، نود الاشارة هنا الى المحصلة التي كانت نصيب العراق من آخر لعبة استعمارية لعب ادوارها رجالات البعث الحاكم في العراق عبر سني حكمه، فاضافة الى ما ذكرناه من سلبيات نظام الحكم من الارهاب السياسي والتحطيم العلمي والاقتصادي وتلويث اصول المجتمع العراقي فقد عانى الشعب في ظل البعث من عدة حروب داخلية وخارجية انهكت قواه وشلت معنوياته واوصلت به الى شفا هاوية لايؤمن وقوعه فيها مع بقاء النظام واستمراره في الحكم. نذكرها بتفصيل ليقف القاري على جانب من حقيقة وضع الشعب العراقي المبتلى، فمنها:

١ـ الحرب البعثية الكردية.

٢ـ الحرب البعثية الشيعية.

٣ـ الحرب البعثية الايرانية أو قادسية صدام.

٤ـ الحرب البعثية الكويتية أو أم المعارك.

٥ـ الحرب البعثية ضد الشعب أو انتفاضة ١٩٩١ م.

الحرب البعثية الكردية

الكورد شريحة مهمة من الشعب العراقي تقطن شمال العراق لها تقاليدها ولغتها الخاصة بها، عانت من الاضطهاد قديماً وحديثاً معاناة يعجز القلم عن بيانها، فلقد ابتلت هذه الامة ببلاءين سياسيين عظيمين عبر تاريخها اذاقاها مُرَّ العذاب، وهما:

ـ **الاول**: استغلالهم من قبل الدول والفئات السياسية الخارجية: بسبب موقع كوردستان الجغرافي وقوة بأس الكورد وملائمة تضاريس مناطقهم لاستغلالها قاعدة ضغط على الحكومات العراقية من اجل انزالها عند رغباتها، وقد استغلت المنطقة واهلها تارة من قبل الشرق واخرى من قبل الغرب وبأسلوب خبيث.

لقد اوحت تلك الجهات الى الكورد الذين بلغت قلوبهم الحناجر بسبب ظلم الظالمين والذين تطلعوا الى النجاة من قيود المتسلطين من حكام العراق، اوحت اليهم ان التاييد والمساندة في انتظارهم لو البسوا فكرة التحرر ومطالبة الحقوق ثوب العمل وتشكيل تنظيمات مسلحة وشن الغارات على المراكز والمعسكرات الحكومية الموجودة في شمال العراق وتكررت هذه الوعود مرّات عديدة ومن جهات مختلفة عبر العقود الاخيرة، وربما قدّمت مساعدات عسكرية بسيطة تحت هذا العنوان كحسن نية من تلك الاطراف كانت في الحقيقة طعماً قدموه لتغريرهم في مواصلة العمل على امل استمرار هذه المساندة حتى بلوغ الاهداف، حتى اذا شدد الشعي الكوردي ضغطهم على الدولة وضيّقت الارض على النظام ورفعت الحكومة راية الاستسلام ملوحة بالوضوخ واجتمع الطرف الاجنبي مع وفد الدولة وعقدوا صفقتهم انقطع المدد والاسناد عن الاكراد وذهب الذي اغرى بهم جانباً وكأنه لم يكن هو المورط لهم، وعندها تنتهز الحكومة الفرصة للصولة من جديد فتكر دون رحمة لتهلك الحرث والنسل، وهذا بلاء تكرر مع الشعب الكوردي لمرّات عديدة.

الثاني: التفرقة والانقسام:

ان العقل يحتم على امة تريد تحقيق هدفها وحدة كلمتها، اما ان تريد هدفاً وهي مصرة على الانقسام على نفسها وتكتلها في زمر شتى فذاك ما لا يؤيده منطق سليم، فلا بلاء ولا ضعف ولا ضياع الاّ في التشتت واختلاف الكلمة. والقضية الكوردية من هذا البعد لا تختلف عن قضية العراق الكبرى وشعبه المشتت، فكأن الاقدار شاءت لهم ذلك. فالكورد شأن الاقليات المظلومة في العالم صبروا على الظيم دهراً، فلما بلغ السيف فيهم حده انتفضوا اعتراضاً وبدأوا بالكلام قبل الحسام فصرخوا في وجه الباطل وعلت منهم الاصوات، فكان الجواب من الطغاة الحاكمين الرصاص والاعتقالات وبات الامر على هذا المنوال حتى ظنوا ان لا مفر من القتال ـ ولا يخفى ان اصل التنفر والانزجار الذي زُرِع في نفوسهم كان بسبب عدم مراعاة الحكام لحقوقهم كجزء من الشعب وان بذور المعارضة كانت شعبية خالصة ولكن المستغلين انتهزوا هذه الفرصة فخلقوا لانفسهم موضع قدم في ساحة القضية الكردية وعاشوا متسترين خلف بعض الوجوه وقد غيبوا لحن القول في ضجيج الهتاف بالشعارات التي دوّت من حناجر الشعب الكردي ومزجوا سم سياساتهم بعين البراءة كما سنوضح ذلك لاحقاً ـ ولكن كيف يتم لهم ذلك وهم مجردون من السلاح وعدوهم اكثر قوة واشد بأساً؟.

لم يحل طغيان العدو بينهم وبين االتفكير الجاد في مسألتهم ولم يجد اليأس منفذاً الى قلوبهم، ورغم كل المخاوف والظروف الخطيرة المحيطة بهم عزموا على المواجهة والاصرار على رفض الظلم، وشكلوا أول نواة للمقاومة باعداد ما استطاعوا من قوة تحت لواء بعض زعمائهم المعروفين، ثم بدأت هذه القوة بالتوسع شيئاً فشيئاً بعد انتشارخبرها في اوساط الجماهير الكوردية، وجاهدوا ردحاً من الزمن فنصر في يوم وهزيمة في آخر وتقدم في جبهة واندحار في اخرى حتى شاعت اخبار النهضة الكوردية في الاوساط العالمية.

ولست ادري ماذا اقول في اسباب ضعفهم المشهود، أأقول انهم لم يتمكنوا من جمع كامل كلمتهم بسبب اهمالهم؟ أم أقول انه بسبب جهل ـ أو خيانة ـ بعضهم حدثت ثغرات في جبهتهم تلك الثغرات التي طالما دخل العدو منها لضربهم؟ أم اقول

ان المستغلين اساؤا الاستفادة من صفاء قلوبهم وصدق نواياهم فمدوا ايديهم الخبيثة في اوساطهم بحثاً عن موضع قدم وكلف ذلك تقطيع اوصالهم وتفرق كلمتهم؟ والاّ فلأي الاسباب نسند تعدد القضية الواحدة الى قضايا تشتت القوى حيث يأخذ كل طرف نصيبه منها ليعمل باستقلال؟ ولقد جرّ هذا البلاء وراءه الويلات اذ ما اصابهم مكروه بسبب شيء بقدر ما اصابهم بسبب هذا التفرق.

ان ما ذكرناه الى الآن عن الكورد وقضيتهم عبارة عن اشارة مختصرة تحاشينا فيها الخوض في تفاصيل مسائل القضية عبر تأريخها اردت سردها لتكون مقدمة توضح ارتباط هذا الفصل الذي نريد بيانه بالفصول السابقة للقصة، فلقد جاء بعث عفلق ليحكم العراق شأن الحكومات السابقة، وقد لعب جولة مع الشعب الكوردي فأردنا هنا بيان جانب من هذه الجولة، فماذا كان نصيب الكورد من هذا الحزب الوطني جداً؟

يظهر من تصرف حزب البعث مع الكورد عبر سنوات حكومة البعث انه كان منذ البداية عازماً على اجتثاث جذورهم والقضاء عليهم قضاءً تاماً، اذ انه ما استلم السلطة حتى عبأ كل ما استطاع من عدّة وعدد وهيأ كل مستلزمات حرب الإبادة عالمياً واعلامياً، فمواقف الدول الصديقة لحزب البعث قد توحدت، والمساعدات العسكرية السخية انحدرت كالسيل العرم، ودعوات للخدمة الالزامية والاحتياط باتت لا تنفك عن الاذاعة والتلفزيون، ونادى الظالم يا خيل الشيطان اركبي وركع بعض عبيد الدنيا من علماء بغداد وبعض المدن الأخرى امام دنانير حزب البعث فشروا بآيات الله ثمناً قليلا وحرفوا الكلم عن مواضعه وحكموا بغير ما انزل الله بفتوى الجهاد ضد الشعب الكوردي لصالح عفلق وشبلي ويوحنا، في حين رفض علماء الشيعة الانصياع لمطاليب البعث ولاقوا ما لاقوه من جراء الرفض ذاك من تنكيل على يد السلطات.

وهجم البعث على الكورد في شمال العراق بوحشية لا توصف واصدر اوامره لجيشه بقتل الذكور وسبي النساء والاطفال ونهب الاموال وهتك الحرمات كما فعل فرعون ببني اسرائيل بل واكثر!!! وأريقت في شمال العراق دماء لا يعلم مبلغها الاّ الله وكان الهدف منها الابادة لا غير، ولكن مشيئة الله حالت دون ما يريد البعث. ولقد

رأيت آثار الجريمة بعيني سنة ١٩٧٥ في القرى المهدمة والبساتين والمزارع المحروقة والجبال السوداء اين ما توجهت في الشمال، فآثار القنابل والصواريخ وشظاياها في كل شبر.... ولكن هل راى احد في العالم اجمع انسانياً واحداً من رؤسائها وملوكها ومجالسها الدولية انكر على هذه الفئة المتسلطة على رقاب الناس فعلتها الشنيعة هذه؟ اللهم انا ما وجدنا في ارضك من اصحاب الحول من نهى هؤلاء الطواغيت عن منكر فعلوه. اللهم ان لاكت جهة ما بين لحييها شيئاً فلم يتعدى الغزل السياسي المعسول.

هذه سيئة واحدة من سيئات البعث المنظورة، وهي القليل من كثير ويلات هذا الحزب الذي كان نصيب جزء من شعب العراق وهم ملايين الكورد الذين لا ذنب لهم سوى رفضهم الباطل ومطالبتهم بعض الحقوق مثل حق الحياة والعيش باطمئنان ضمن تقاليدهم وفي ارضهم، في حين لم يسلم باقي العراقيين من نار هذه الحرب ودخانها، فاضافة الى ما هدر من اموال طائلة وطاقات وسلاح فقد قتل اكثر من ستين الف من الجنود العراقيين ـ كماصرح به صدام نفسه ـ الذين زجّهم الحزب بالاكراه في هذه الحرب وهؤلاء المساكين هم ابناء العراقيين من المحافظات الاخرى... فماذا قدم حزب البعث بحرب الابادة هذه للعراق والعراقيين؟ وماذا جنى من كل هذه الجرائم؟ وهل اضاف لبنة الى صرح التقدم المزعوم الذي ينادي به البعث أو قدّم خدمة للعروبة التي يتغنى بها؟

والمزري ان البعثيين بعد اخفاقهم في عملية الابادة يمنون على من تبقى من الكورد وسلم من سيف الجلاد يمنون عليهم فضل الحزب والثورة ويقولون ان منجزات الثورة ومكتسبات الحزب احيت العراقيين بعد موت وبعثت فيهم روح الحياة، وبما انكم يا اخواننا الكورد عراقيون يجب عليكم الانتماء الى حزب البعث العربي الاشتراكي، ولئن اجاب بعض الاكراد استهزاءً ان حزب البعث عربي بزعمكم فكيف ننتمي اليه ونحن كورد؟ قالوا في جوابهم ان خيمة الحزب واسعة فمع تسميته بالعربي الاّ ان فكرته عالمية... ويا للمهزلة!!!

لا يفوتني ان اذكر اتفاقية الجزائر عام ١٩٧٥ م التي منها انطلق السهم القاتل نحو الشعب الكوردي المضطهد كدليل على ما ذكرناه من ابتلاء هذا الشعب

بالسياسات العالمية، اذ انه بتوقيع تلك الاتفاقية بين شاه ايران وصدام حسين، وقع اسوأ انهيار في الحركة الكوردية عبر تاريخها الطويل لتبقى في ركودها فترة طويلة.

وفجأة غير الحزب استراتيجيته وموقفه اواخر السبعينات وقبيل الثورة الاسلامية في ايران. فبدأ يتقرب من الكورد بتقديم خدمات في شمال العراق ودق طبول الاخوة العربية الكوردية، واستنفرت وسائل اعلام البعث لهذا الغرض فظن الناس مرة اخرى بالبعث خيراً، فان اقاويلهم وافعالهم تنبئ عن ذلك، وقد خفي على الجميع ان هذا السخاء وهذا الخضوع لم يكن حباً بالكورد ولا كرماً من اخلاق البعث، وانما كيد اخفاه رموز البعث في صدورهم فانهم كانوا يعلمون انهم مقبلون على حرب اشدّ ضراوة واكثر عنفاً ضد الجمهورية الاسلامية الايرانية، فلقد كلف الاستعمار حزب البعث بزج العراق في الحرب، اذ لا يمكن ان تقف امريكا وحلفاؤها مكتوفة الايدي ازاء ما وقع في ايران، فتحررالشعب الايراني بالنسبة للاستعماركارثة كبرى، ولابد من قمع هذا الشعب والحيلولة بينه وبين مايريد، ولهذا يجب افتعال حرب، وبسبب مقبول لدى الرأي العام، وما ايسر افتعال اسباب صراع بين ايران وجارتها العراق ليكون المستعمر بهذه الذريعة في خدمة العراق.

ان مثل هذه الحرب المتوقعة تتطلب امورا كثيرة على رأسها تحقيق وحدة كلمة العراقيين ومنهم الكورد، فلابد اذن من كسب ودهم فترة الحرب على اقل تقدير بالتظاهر بحسن النية وطي صفحة الماضي والدعوة الى الاخاء، وصرف مبالغ في مشاريع خدمية في شمال العراق ليطمئن الكورد من حسن نية الحزب.

كما ان من الامور المطلوبة ايضاً تأمين العدد الكافي من المقاتلين لان ايران دولة كبيرة وبامكانها حشد عدد كبير من الجند فلابد للعراق من تأمين العدد المطلوب من المقاتلين، والكورد فئة كبيرة ويمكن جرّ شبابها نحو القتال وبالتقرب منهم يكون هذا الامر ميسورا، فالعراق عراق الجميع والخطر يهدد البلد بأسره فلابد لابناء العراق من عربه وكورده التطوع للدفاع عنه، ولقد قالها صدام بلسانه (اللي ما يتطوع ما هو من شعبنا). ثم ان مثل هذه الحرب تتطلب امناً في الداخل كي تحصر القيادة همها في جبهات القتال ولا يشغله في الداخل شاغل ومع عدم كسب الاكراد لا يمكن تحقيق

مثل هذا الامن، إذ ربما استغل الكورد وضع الحرب وشرعوا في حركة لم تكن في الحسبان، يؤدي ذلك الى ارباك في جبهات حرب لا مفرّمنها بعد ان اتخذ الاسياد قرار الحرب، فلابد اذن من خضوعٍ مفتعلٍ، واشادةٍ اعلاميةٍ بالكورد، وشراء الذمم المريضة منهم زيادة في الاحتياط لتضمين الامن في منطقة كردستان بتشكيل افواج الدفاع الوطني واغداق المال عليها بسخاء.

هذه هي الاسباب الخفية وراء سياسة اللين مع الاكراد منذ بدء الاضطرابات في ايران اواخر عهد الشاه، وقد كانت العملية في ظاهرها مكسباً وطنياً لكنها كانت في الباطن كما اثبتت الايام خديعة تحاشوا بها شرَّ الاكراد مدة الحرب من جهة وايقاعهم في حفيرة الغدر بقتل ابناءهم في جبهات القتال من جهة اخرى. وخير دليل على كون تلك السياسة من خدع البعث هو ما قام به البعث بعد انتهاء الحرب العراقية الايرانية مباشرة، فبعد اعلان ايران قبول وقف اطلاق النار امر صدام حسين قواته بالتوجه فوراً الى شمال العراق لخوض معركة ابادة جديدة سمّيت بخاتمة الانفال، ومن لم يسمع بخاتمة الانفال؟

لقد اراد البعث هذه المرّة اكمال رسالته التي عجز عنها عام ١٩٧٥ م وذلك بهجوم كاسح على كامل كردستان لتحقيق نفس الاهداف السابقة. وقد قرأت رسالة سرّية للغاية وعلى الفور صادرة من القيادة العامة الى كافة وحدات الجيش ـ اذ كنت حينها في خدمة الاحتياط اعمل في مكتب احدى الوحدات ـ تأمر الرسالة بقتل الذكور ممن بلغ العاشرة فما فوقها ميدانياً، وأسر النساء والاطفال، وهدم كل بناء قائم بما فيها المساجد ومساواتها مع الارض، وحرق كافة المزارع والبساتين، ومصادرة الممتلكات أو تدميرها.

كما رأيت التطبيق العملي لهذه القرارات خلال عمليات الانفال عام ١٩٨٨م في مناظر بشعة تقشعر منها الجلود، فقد كانت النيران تلتهم الحياة في الجبال والوديان، فما سلمت شجرة قائمة على اصولها من شررها، ودخان الجريمة لبّدت آفاق السماء، وفي الارض لا تسمع الاّ عويل النساء والاطفال وهم يساقون قسراً الى شاحنات عسكرية لتنقلهم الى حيث لا يعلمون ورجالهم بين قتيل مضمخ وجريح يجود بنفسه ولائذ بالكهوف والمغارات طلباً للنجاة من غير اطمئنان في حصولها، لأن الجيش في كل مكان كالجراد المنتشر.

واليك مشهد مروّع واحد مما شاهدت من قصص خاتمة الانفال المأساوية، وهي قصة عائلة مؤلفة من أب وأم وابنين وزوجة الابن الاكبر الذي لم يتجاوز العشرين من العمر كان جديد العهد بالزواج، القي القبض عليهم في حملة المداهمات لتفتيش القرى شرقي شيخان، ونقلوهم الى مقر الفوج، كان الخوف قد استولى عليهم تماماً بعد ان احاط بهم كردوس من العسكر المدجج بالسلاح، وبأمر من ضابط التوجيه السياسي اخذ بعض الجنود بجلابيب الاب والولدين يجرون بهم نحو المصير المحتوم الى سمت الوادي المشؤوم ليتم اعدامهم هناك، والام والزوجة تنظران وتعلمان لماذا اخذ الجند الاب وابنيه بعد ان اخبرهما بعض الذين احتوشوهم بادئ الامر.

اما كيف اصف مشاعر أُم تفقد ولدين وزوج امام عينيها، أو مشاعر زوجة لم تتهنأ بزواجها وهي ترى زوجها الشاب بيد ذئاب لا تتورع عن نهشه فذاك الذي لم اجد سله عبارات تليق بالتعبير، فكيف اصف ما شاهدت من ثكل وجزع واضطراب بعد سماع اصوات رشقات البنادق من جهة الوادي... لست ادري... ثم يؤذن مؤذن خذوا النساء، ويسرع عدد من الجلاوزة نحو الاسيرتين وقادوهما صوب عجلة عسكرية واركبوهما مرغمتين وهما بين جرح فقد الأعزّة وروع ما ينتظرهن من جفاء العدو السافل. هذه كرامة واحدة من عشرات بل مئات الالوف من امثالها من كرامات حزب البعث العربي الاشتراكي المدّعي زوراً ما ليس فيه، وهكذا وبمثل هذه الاعمال الدنيئة يخدم حكام البعث شعب العراق فما أقبحهم وأقبح فعالهم؟.

الحرب البعثية الشيعية

تشكل الشيعة ما يقرب من ثلاثة ارباع سكان العراق وهم يتمركزون في وسط وجنوب العراق، ومع اكثريتهم لم نجد عبر التاريخ أي دور لهم في ادارة العراق، والسر في ذلك واضح، فقد علمت الشيعة ان الاستعمار يهوى غيرهم من الذين آثروا الحياة الدنيا، ولذا لم تجد ثمة حرص كبير منهم على نيل كرسي الحكومة، وليس هذا بالمهم انما الكلام في تعامل السلطات الحاكمة مع هذه الطائفة، فهي على كثرتها الساحقة

أقلّ الطوائف حقوقاً واثقلها حملاً بالواجبات مضافاً الى ما يرافق ذلك من سوء ظن الحكام وما يعقب ذلك من رقابة حركاتهم وتحديد فعالياتهم واغلاق ابواب الخروج بوجههم، والتحدث معهم بلغة السيف كلما دار حديث أو وقعت واقعة. ولسنا بصدد بيان تفصيلات حياة الشيعة عبر العصور هنا، وانما نريد الاشارة بايجاز الى ما عانته الشيعة من حكومة البعث اثباتاً لمدعانا ان حزب البعث لم يأت لخدمة العراق.

تربع البعثيون على كرسي الحكم وجاؤا بدينهم الجديد وهم يريدون اكراه كامل الشعب العراقي على اعتناقه والشيعة من جملة المدعوّين. ومن المتيقن ان الحزب قد اتقن هذه المرّة خطته في مواجهة مسألة المذاهب اذ انه على علم مسبق بالاجواء المذهبية الحاكمة في العراق بعد اتّعاض الحزب من تجربة عام ١٩٦٣، فكيف واجه الحزب شيعة العراق وما هي نتائج المواجهة؟

لا نعني باختصاصنا الشيعة بالبحث ان الحزب قد كنّ عداءه لهذا المذهب فقط دون المذاهب الاسلامية الاخرى، فالبعث عدوّ للدين الاسلامي بكل مذاهبه وقد احاطت ناره كل اهل الاسلام، الاّ ان تعامله مع الشيعة كان من طراز خاص فقد اجتمعت علل متعددة في اختصاصهم بمثل تلك المعاملة ولأنها المذهب الاقوى والرمز الديني البارز في العراق، فلو استطاع البعث القضاء عليه سهل تركيع المذاهب الاخرى الاقل قوة والاضعف جنداً. ولذلك اتبع الحزب سبيل النفاق فأظهر الولاء لبعض المذاهب بل نسب نفسه اليها رافعاً باسمها راية الاسلام متحدثاً عن الايمان آناء الليل واطراف النهار. ومن اراد الوقوف على نفاق البعث فليطالع مقالة (عبد الله المؤمن صدام حسين) المطبوعة والموسومة بـ (خندق واحد لا خندقان) فالحزب اذ يعلن علمانيته ويشرع عملياً في حرب مع الاسلام يأتي صدام فيقول: ـ نحن لسنا حياديين بين الايمان والكفر، نحن مع الايمان ـ يقول هذا وهو يطبق عملياً توصية الحزب بقتل الايمان.

لقد حاول البعث في الصولة الاولى اتّباع سياسة الدّس والنفاق مع الشيعة فهو يدرك مدى خطورة اعلان الحرب ضدهم، فقواعد الشيعة ثابتة وحصونهم منيعة وجندهم كثير وقيادتهم رشيدة مسموعة الكلمة فعليه لابد اولاً من ضعضعة بنيانهم

ومن ثم الاجهاز عليهم. والقيادة الشيعية متمثلة في علمائها المتمركزين في الحوزات العلمية، ومعسكرات تجمع الشيعة منتشرة في ارجاء العراق فمساجدهم وحسينياتهم في كل مكان، ومروجوا الشريعة من العلماء والخطباء لا ينفكون عن توجيه الجماهير في كل مناسبة والشعائر الحسينية قائمة على قدم وساق في مواكب مهيبة تجذب اليها الصغير والكبير.

ووضع مثل هذا لا يناسبه استخدام القوة مهما بلغت، وكانت الاحداث تشير آنذاك الى صراع في قيادة البعث حول كيفية التعامل مع هذه القضية، اذ حاول المتسرعون منهم التعامل بحزم منذ البداية، ولذلك استهدفوا القيادة الدينية، وما صدر منهم تجاه زعيم الشيعة الفقيد السعيد آية الله السيد محسن الطباطبائي الحكيم معروف مشهور، واقتحام الحسينيات ومصادرة آثاثها ومنع المواكب وتهديد الخطباء وغيرها ما زالت في الاذهان، واستمروا كذلك حتى لمسوا الآثار السلبية لتصرفهم على الحزب في الوسط الجماهيري حينها توقفوا مؤقتاً ليدبِّروا مكراً جديداً، وبالفعل ظهرت وجوه هنا وهناك تعتذر عن سوء التعامل وتعد الناس بخير فأطلقوا شعار حرّية اقامة الشعائر بل وشاركوا الناس مجالسهم اظهاراً لحسن النوايا وشارك الرئيس احمد حسن البكر في الخطة الجديدة بحضوره شخصياً بعض مجالس العزاء ايام محوم الحرام، وشوقوا الخطباء بتقديم مساعدة مالية لكل خطيب كما ساهموا في وليمة عاشوراء التي تقيمها الهيآت يوم عاشوراء.

كل هذا كان وجهاً واحداً من وجوه الخطة، واما الوجه الآخر فقد تمثل في مدّ يد الغدر الى مركز القيادة في النجف الاشرف والمراكز الاخرى بملاحقة النشطين من العلماء العراقيين وترحيل العلماء غير العراقيين بهدف تخلية هذه المراكز من عناصر وجدوها قوة دعم للمذهب، واستنفر النظام وسائل اعلامه لتغطية هذه الجرائم بالسفسطة من جهة وتصعيد غوغاء طبول مشاطرة الناس شعائرهم بين الجماهير من جهة اخرى.

بهذه اللعبة نجح بعض الشيء في تحقيق جزء من اهدافه، فقد نال بما فيه الكفاية من العلماء والحوزات العلمية وتم تسفير الآلاف من رجال الدين من

غيرالعراقيين الى خارج العراق كما القي القبض على عدد كبير من العلماء العراقيين. ولكن رغم محاولتهم الجادّة في الهاء جبهة الناس بالمداراة الخادعة والتكتيم فان الناس قد اعربوا عن سخطهم بعد انتشار خبر الاعتقالات والتسفيرات، فشعر النظام بخطورة موقف الناس وتوقف مرّة اخرى بشكل مؤقت عن الملاحقة لتدارك الوضع، اذ ربما يستغل المناوئون هذه الظروف في تأليب الناس على النظام، وخير عمل ينبغي القيام به في المرحلة الراهنة هو الاعتذار عما حصل وكسب رضا ذوي النفوذ من العلماء، وهكذا ارسل الحزب وفداً على مستوىً عال الى النجف الاشرف لزيارة العلماء ولتقديم العذر عما وقع والقاء لوم ذلك على جهات لا مسؤلة في الدولة وتبرئة ساحة قيادة الحزب والثورة من تلك الاعمال اللا انسانية ووعدوا بأن هذا الامر لا ولن يتكرر مرّة اخرى، ولاثبات حسن النوايا وصدق الحزب التمسوا من بعض العلماء تقديم دفاتر اقامة من تبقّى من غير العراقيين لتجديد مدة اقامتهم كما وعدوا باطلاق سراح المسجونين وتمديد تأجيل الخدمة العسكرية للمشمولين بها من طلاب العلوم الدينية، فلجموا بذلك الافواه واطمأنت النفوس لقسم الشيطان، واحتووا بذلك زخم ضجيج الشعب.

ومرّت الايام على الناس وهم في احلام اليقضة بانتظار وعد عرقوب، في حين كان البعث عازماً في سرّه على تحقيق هدفه في النيل من الشيعة وما أقصر حبل كذب البعث، إذ ما مرت ايام الاّ وعاد البعث للصولة من جديد قاصداً الناس هذه المرّة. واليك خلاصة المكر الذي مكره في هذه المرحلة:

كان من جملة وعود البعث منح الشهادة الجنسية العراقية لغير العراقيين اصلاً والمتجنسين بالجنسية العراقية وهم كثيرون يعدون بمئات الالوف وفيهم من ولد جده وابوه في العراق وكلهم من الشيعة. وطلبوا من اولئك تقديم معاملاتهم لكن الناس كانوا في شك من عاقبة الامر فامتنعت الاكثرية من الاقدام وما خطا نحو هذه المصيدة الاّ عدد قليل، فانتهز الحزب هذه الفرصة للتحايل وتقديم الطعم للممتنعين فمنح هذه القلّة الشهادات المطلوبة في زمن قياسي، وانتشر الخبر بين الناس بوفاء الدولة بوعدها فهبّ المشمولون بالقرار الى إدارات الدولة لتقديم اسمائهم ومستمسكاتهم،

فضبط النظام عناوين الجميع على ان ينتظروا في بيوتهم لحين تبليغهم بالحضور لاستلام الشهادات، وجاء اليوم الموعود يوم تبليغ الناس بمراجعة دوائر الجنسية لاستلام هبة البعث على ان يحضر كل افراد العائلة دون استثناء...

وتوجه الناس صوب مديريات الجنسية زمرا فاذا الشاحنات بمختلف انواعها مسطرة امام الدوائر ويستقبل العوائل موضفوا الدولة باستلام مالديهم من مستمسكات عراقية وهدايتهم الى الشاحنات مرغمين، وهكذا تحركت قوافل الشاحنات صوب المنذرية في الحدود الايرانية وانتشر الخبر بسرعة فامسك من تاخر عن المراجعة عن الذهاب لكن النظام كان قد عقد العزم على ترحيل المتجنسين فما ان حل الظلام حتى انزل الحزب قواته من الجيش الشعبي المدجج بالسلاح لاخراج كل اولئك الذين قدموا اسماءهم ضمن قوائم المتجنسين قسراً من منازلهم دون ان يسمحوا لهم بحمل شيء من امتعتهم وآثاث بيوتهم، وساقوا الجميع في طوابير نحو الحدود.

لقد ترك اولئك المساكين كل ما يملكون ولم يكن نصيبهم سوى ما عليهم من الملبس. وفي اليوم الثاني وما تلته من الايام نزلوا الى الشوارع ليلقوا القبض على كل غير عراقي من عامة الناس أو من رجال الدين حمل دفتر اقامة أو لم يحمل وكان الهرج والمرج صبغة تلك الايام وقعت فيها احداث لا يحتملها عقل فلرب أب اختطف في الشارع واطفاله لايعلمون عنه شيئاً ولرب ابن خرج لشراء حاجة فلم يعد، ولقد اثبت البعث كل وحشيته في تلك الايام في مفردات كثيرة جداً في طول العراق وعرضه اذكر واحدة منها على سبيل المثال:

في صبيحة يوم من تلك الايام السوداء يخرج اب من بيته لشراء الخبز من خباز قريب، هذا الاب له طفلان صغيران قد توفيت امهما، تركهما في نومهما وعند خروجه اقفل الباب بالمفتاح خشية ان يتأخر فينهضان فلا يجداه ويخرجان، وبينما هو في انتظار الدور عند الخباز تمر مفرزة من مفارز البعث ويخونه الحظ فيقع في ايديهم ليجروه الى المصير المعلوم، يتوسل اليهم ويناشدهم بمقدساتهم كي ياخذوه معهم الى بيته ليحمل الطفلين لكن الجلاوزة لم يسمعو منه قولاً، ويشرح لهم مسألته ويخبرهم

بانه اقفل الباب على طفليه ولا احد يعلم بهما وربما يموتان لكن الشيطان قد استحوذ على اولئك السفلة واصروا على عدم تلبية مطلبه وسحبوه نحو مركز الشرطة لغرض ابعاده عن العراق ولولا فضل الله على الطفلين البريئين بهداية صديق لابيهم ليعمل جدّه في سبيل انقاذهما بعد ان علم بقصة الرجل لكانا من الهالكين.

بهذه الصورة شن البعث هجومه الجديد والجدير بالذكر ان النظام قد استغل غطاء التسفير لطرد الكثير من العراقيين الاصلاء حملة المستمسكات العراقية البحتة بعد اخذها منهم واتهامهم بانهم غير عراقيين وما نقموا منهم الا انهم شيعة يظهرون الولاء لاهل البيت في شعائرهم ومشاعرهم.

هذا ما جرى على المتجنسين من شيعة العراق واما ما دار في ساحة العلماء ورجال الدين في خضم هذا الضجيج فاني لاعجز من ان اذكر المآسي والهتك والمشاهد التي تندى لها جبين التاريخ. ومرت الايام العصيبة تلك، وهزت قساوة البعث ضمير كل العراقيين، وزرع هول السطوة الرعب في قلوب الشيعة، وهم بدأو يدركون ما يلوح به حزب البعث في اجتماعاته ووسائله الاعلامية. فالبعث قد اطمئن من قوته وابرز منها الجانب الشديدالحازم رسالة للناس باطاعة الاوامر وتحذيراً لمن فكر في غير ذلك بغير حساب. وبدأ التصريح بالاهداف البعيدة هيّنا ما دامت الفرائص قد ارتعدت من زمجرة المارد وصدرت الاحكام علانية بمنع التجمعات الدينية والشعائر الحسينية في كافة محافظات الشيعة والويل لمن لا يمتثل للاوامر.

وبدأت حملات الاعتقالات في صفوف الشيعة تحت ذرائع مختلفة. واستهدفت هذه المرحلة العناصر التي ثبت عبر السنوات الماضية تمسكها بالمذهب والدين من شباب الشيعة. فاعدم الآلاف بتهمة ادارة المواكب الحسينية والمشاركة الفعالة في الهيئات وآلاف اخرى بتهمة ترددهم على المساجد ومواضبتهم على الصلاة فيها حتى اصبحت الحسينيات والمساجد فخاً يقع فيه من دخلها بقصد أو بغير قصد هذا اضافة الى حملة اعدامات واعتقالات واسعة النطاق لائمة الجماعات في اكثر المساجد الشيعية وفي كافة المحافظات العراقية.

وهكذا استطاع البعث اقفال المساجد والحسينيات في وسط وجنوب العراق

والغرض كان جرد الشيعة من سبل تجمعها ووحدتها من ناحية والايحاء بخطورة التظاهر بمظهر الدين في الوسط الاجتماعي مقدمة للهجوم على اصل الاعتقاد في قلوب الناس للقضاء عليها واحلال عقيدة البعث محلها وقد حاولت الشيعة ابراز سخطها ومعارضتها لتصرفات الحزب في انتفاضات محدودة ايام عاشوراء والاربعين وانتفاضة سنة ١٩٧٥ م لكنها قمعت باسرها بسطوة البعثيين وراح ضحيتها آلآف اخرى من خيرة علمائها وشبابها.

لقد حاول الحزب أيام حملته على الشيعة تغطية جرائمه اعلامياً لتضليل الرأي العام، فهو في الوقت الذي منع إقامة الشعائر الحسينية ولاحق الخطباء في كل مكان، استعان ببعض المأجورين لإلقاء خطب أيام المناسبات في أماكن خاصة دفعاً لتهمة محاربة الشعائر والحيلولة دون استغلال أعداء الحزب ذلك في التشهير بالبعث. حيث كانت خطب هؤلاء لا تتعدّى ترويج شعارات البعث وبيان منجزات الثورة والدعاء للسيد الرئيس على ان تنتهي الخطبة ببيتين من الرثاء ليتم الإمر باسم اقامة العزاء... وصوت من هذه الاصوات في كل مدينة كاف كطعم للإعلام، كما لم يرو بأساً في إذاعة قصة مقتل الحسين عليه السلام احياناً عبر الراديو للتظاهر بمشاركة الناس في شعائرهم. ولم تسلم المساجد أيضاً من هذه الحملة فقد اغلقت أكثر مساجد المدن التي تسكنها الشيعة الاّ تلك التي عينت وزارة الأوقاف أئمتها من وعاظ السلاطين الذين لا يأتم بهم الاّ عدد من رجال الأمن وبعض المغفلين.

وأما الحوزات العلمية فهي الأخرى أوشكت أن تغلق أبوابها بسبب اعتقال قسم من طلابها وهرب الآخرين الى خارج العراق فترى النجف الأشرف كبرى الجامعات الدينية في العراق والمعروفة بكثرة طلابها وحركتها، خالية الصفوف، معطلة المدارس، متوقفة النشاط، لمس آثار العدوان عليها كل من زارها، حتى ان السلطة نفسها أدركت خطورة بقاء هذه الظاهرة على سمعة الحزب فسعت في شراء ذمم عدد من الذين رأوا في التقية عذراً مبيحاً للتعامل مع البعث فشروهم بثمن بخس على أن يكونوا لسان الحزب ويده اضافة الى دس عدد كبير من رجال الأمن في الحوزة العلمية بعد الباسهم زي رجال الدين وقد أُمر هؤلاء واولئك بالتواجد في الأماكن العامة خصوصاً في

صحن الروضة العلوية ليكونوا بمرأى القادم الى مدينة النجف ليدفعوا بذلك ما شاع في الوسط العام من ان الحزب قد قضى على العلماء وأخلى الحوزات العلمية من طلابها، وهم في نفس الوقت عيون للنظام في أماكن تواجدهم.

واستمرّت الأوضاع على هذا المنوال في جبهة الشيعة بين قتل بطئ وتخريب مستمر للصرح العقيدي العملاق الذي احتفظوا به عبر القرون دون ان يكلّ البعث في جهد أو يقف عند حد. وفي طول هذا الصراع الذي استخدمت فيه وسائل الحرب الحارة كان لإعلام البعث الدور البارز في التأثير على أجواء المعركة لصالح الحزب فالكذب والافتراء والدجل والنفاق وكل ما يتصور من خبث كانت تجري على السنتهم ومن أقلامهم في حين كانت الشيعة مسلوبة القلم واللسان، فقد منع خطيبهم من الكلام وعالمهم من البيان والكتابة بل وحتى عامة افرادهم منعوا من التحدث في امور الدين والمذهب، وبات الحديث عن الدين جرم يجر الى الاعتقال أو الاعدام، واما الكتب الدينية والعقائدية فقد اعتبرت من الممنوعات ولم تكد ترى كتابا مذهبياً يعود الى الشيعة مطروحا في السوق بل وكتاب واحد منها في يد انسان يكفي لاتهامه بالانتماء الى حزب معاد للنظام واعدامه.

وبقيت الأوضاع على هذا الحال حتى أواخر السبعينات دون فتور، خسرت فيها الشيعة الكثير من قادتها وجنودها ولم تكد ترى يومها في الأفق ما يشير الى انقشاع غيوم العذاب التي لبدت سماء الشيعة في انحاء العراق، وفجأة تغير لحن قول البعثيين وتغيرت المواقع والمواقف وبان الأرتباك واضحاً في جبهة السلطة، وقد ادرك اهل التحليل سر ذلك، حيث لاحت فعالية بركان ثورة اسلامية شيعية على الحدود الشرقية للعراق.

لقد جن جنون البعث وهو يرى الانتصارات المتلاحقة للثوار المسلمين، وشاطر الأسياد قلقهم على مستقبل المنطقة واستجاب لهم ارتجالاً في مشاركتهم للوقوف بوجه الثورة الايرانية، وكان هذا القلق هو منشأ الاضطراب البعثي فتارة يدفعه الحقد الاعمى الى التعجيل في الهجوم الكاسح على ما تبقى للشيعة فيصول بقساوة في جبهة، وأخرى يفكر في مهادنة مؤقتة تمهيداً للمعركة القادمة مع ايران ـ والتي تطوع البعث

بها خدمة لمصالح الأسياد في المنطقة ـ فينسحب بهدوء في جبهة. وهذا التلون أوقع الكثيرين في وهم أن انقساماً وقع بين قياديي الحزب. فمن جهة ضيّق الحزب الخناق على علماء الدين بالقتل والحبس والمطاردة ومن جهة بدأ بحملة اعلامية واسعة من خلال الحلقات الحزبية المنتشرة في كافة أنحاء العراق تدعوا الناس الى وحدة الكلمة والتكاتف من أجل بناء العراق وتبشر بعهد جديد، وتم تبديل رأس النظام (البكر) برمز كان وراء كل ما أصاب العراقيين من بلاء وهو(صدام)، وافتتح عهده بوعد الرفاه، وبدأ صدام نفسه بالتقرب من الشيعة بل وادّعى أنه من أحفاد علي والحسين، وخرق لنفسه مشجرة نسبية يوصل فيها نسبه الى الامام علي (ع)، وقام بزيارات للمشاهد المشرفة تحت غطاء إعلامي وسيع وكتبت صحف العراق في عناوين بارزة ونقلت الاذاعات أنباء زيارة الحفيد لمرقد جده، وحتى صواريخ الـ (اسكود) الروسية باتت تحمل أسماء شيعية، ومن لم يسمع بصواريخ الحسين والعباس.

لقد ظن صدام وحزبه انه يمكن كسب الشيعة بالوعود والتظاهر بالتقرب منهم ليتمسكوا بالحزب والثورة في الظرف الذي ظهرت بوادر التحول في ايران قبل هروب الشاه، وكان لابد للحزب من اتخاذ الاجراءات اللازمة تمهيدا للمرحلة القادمة حيث كلف الحزب بشن الحرب على ايران فيما لو اطاحت الثورة بالشاه العميل القديم، فعملوا ما وسعهم العمل من اجل ان يخدعوا الشيعة. وما كانت كل تلك الألاعيب الاّ لذلك الغرض الخبيث، ولكن سرعان ما خاب ظن صدام وحزبه حيث أظهرت الشيعة بكل جلاء بهجتها بانتصار الثورة الاسلامية وعبرت عن ولائها لها باظهار الفرح وتوزيع الحلويات، فلما ثبت ذلك للمجرم أسفر هو ورفاقه عن وجوههم القبيحة وصبوا جام غضبهم على الشيعة من جديد فعادت الاعتقالات والاعدامات والتسفيرات بابشع صورها. ولو قدّر لأحد حصر القتلى والمفقودين من الشيعة خلال هذا الصراع لبلغ رقماً لا يتصوره عقل. فأين منجزات الثورة والابواق الفارعة من هذا الاضطهاد وهذه الخسائر؟

الحرب البعثية الايرانية

(قادسية صدام)

لم يكتف البعث بالذي جرّه على العراق من ويلات طيلة سنوات ما قبل الحرب حتى أسرع متطوعاً في قبوله أوامر الاستعمار بافتعال الحرب ضد الجمهورية الاسلامية ليدخل بذلك العراق في معمعة هو في غنى عنها، ومن يجهل مآسي الحروب ومن يرغب في الدمار والقتل.

كانت ايران قبل الثورة مستعمرة أمريكية بكل معنى الكلمة، فرمز النظام (الشاه) عريق في العمالة للاجانب كما كان ابوه من قبل، وشعب ايران المسلم الذي أذيق المرّ من السلطة الشاهنشاهية صمم على تحرير وطنه من هيمنة الاستعمار. وبقي الصراع على أشده بين السلطة والشعب، وعبر كفاح طويل وتضحيات جسيمة وصمود منقطع النظير تمكن من القضاء على النظام الفاسد تحت ظل قيادة اسلامية حكيمة بزعامة الامام الخميني (قدس سره) والعلماء الاعلام فكانت ثورة اسلامية بحق. ومضى هذا الشعب المجاهد يسير قدماً لترسيخ اركان الدولة وبناء ماهدمه الشاه عبر عقود لتأسيس جمهورية اسلامية نموذجية تكون مثالاً يحتذى به.

كان الاستعمار في الايام التي سبقت انتصار الثورة في شغل شاغل وسعي دائب للحفاظ على الحكومة الشاهنشاهية وانقاذ محمد رضا بهلوي من هذه الورطة وبالتالي الحفاظ على منافعه في المنطقة. لكن صمود الشعب بدد آمال الاستعمار واستمرت الثوره رغم دسائس المستعمرين حتى يوم النصر العظيم وتلقى الاستعمار بذلك صفعة لم يصفع مثلها قط. لذلك وبعد اليأس من كل حيلة في انقاذ الشاه بدأ يفكر في التخطيط لضرب الثورة باي شكل معبئاً جميع طاقاته للحركة الجديدة مستنفراً جميع عملائه في المنطقة من العرب وغير العرب.

لقد كان زعيم الثورة الامام الخميني في العراق فسعى الاستكبار وهو يعلم ان زناد قدح الثورة متمثل في هذا الرجل، سعى لزعزعته من مقره عساه بذلك يربك خطط الثوار ليستفيد هو من الوقت، فارسل اشارته الى قيادة حزب البعث للقيام

بهذه المهمة وقد استجاب العملاء فوراً لامر الاسياد فأوعزوا الى الامام بترك العراق. وتوجه الامام صوب الكويت لكن السلطات الكويتية حالت دون دخوله اراضي الكويت وعلم الامام (قدس سره) ان المؤامرة منسوجة من قبل وان الدول الاسلامية عربية كانت أو غيرها لن تسمح له بدخول اراضيها فلا فائدة في المزيد من المحاولات مع تلك الدول، ويتخذ القراربحكمة عالية بالتوجه الى فرنسا وكان وراء هذا القرار هدفان مهمان هما:

١ـ وضع المدنية الغربية التي منها فرنسا امام امرين لا ثالث لهما وهما الاول القبول حفاظاً على سمعتها الدولية وما طبّلت لها من ادعاء الحرية وحقوق الانسان وبذلك ينال الامام مقصوده بايجاد موضع قدم لادامة القيادة والثاني الرفض وفي ذلك الفضح العلني لشعارات الحرية التي يتبجحون بها امام العالم.

٢ـ اثبات عمالة دول العالم الثالث ومنها الدول الاسلامية التي رفضت استقبال الامام بايعاز من الغرب. واختارت فرنسا الطريق الصحيح بمنح الامام حق اللجوء السياسي وكسبت بذلك تقدير المسلمين من مؤيدي الثورة الاسلامية.

كان هذا هو الدور الرسمي الاول لحكومة البعث في خدمة الاستعمار وقد أدّت الدور بشكل علني وسافر، وبادرت بعد عملية اخراج الامام بسلسلة من الاجراءات القمعية ضدّ أنصار الامام من العلماء الايرانيين والعراقيين، ورغم ذلك فقد كانت النتيجة النهائية على العملاء ولصالح الثورة اذ بلغت بما فعله الاعداء ذروة البراءة وبالتالي ذروة القوّة بازدياد الانصار ومضاعفة النشاط والفعاليات.

لم يكن اخراج الامام من العراق الامر الوحيد الذي استلمه البعث من الاسياد، فالأحداث قد كشفت ان المهام التي أوكلت اليه كانت متعددة، فهناك امر آخر كان لزاماً على البعث قبوله وهو الاستعداد للحرب فيما لو نجحت الثورة في ايران، ولو تتبعنا الاحداث داخل العراق في تلك الفترة الزمنية القصيرة لتبين بجلاء الدور المفضوح للبعث. ونحن هنا نتعرض باختصار لتلك الامور التي تنبئ عن نوايا الاستعمار الغربي في تحميل الحرب على الشعب الايراني الثائر بهدف القضاء على الثورة في مهدها بقوّة السلاح، وقبول العراق اجراء هذا الدور، ومنها أيضاً نتحسس نظرية الاستكبار في

المسألة وكيف وضع سقوط الشاه ونجاح الثورة في الحسبان منذ زمن ليس بقليل قبل نجاح الثورة. فمن تلك الامور:

١ ـ التغيير المفاجئ في سياسة البعث الداخلية وموقفه من الاقليات والمذاهب بالدعوة الى الوحدة والاخوّة وقيم الاسلام والحريّة وتعبير الرأي وما شابه ذلك ـ وقد كانت كل تلك لاجل اغفال الشعب وتوفير الامن والتماسك الداخلي التي هي من المستلزمات الضرورية زمن الحرب ـ

٢ ـ اغداق المال بسخاء وتوفير فرص العمل ورفع المستوى المعاشي واشغال الناس بالامور الماديّة ليكونوا في معزل عما يجري في الساحة السياسية.

٣ ـ تبديل رأس النظام ـ احمد حسن البكر ـ الغير الكفوء بصدام حسين ـ طرزان العراق ـ في مسرحيّة كوميدية.

٤ ـ تشكيل قمة عربية في بغداد باسم توحيد الصف العربي وتحرير فلسطين. وقد تبين ان القمة شكلت لتنسيق المواقف بتحميل كل دولة دوراً من المسؤولية في الحرب القادمة التي لا مفرّ منها مع ايران وتعيين نصيب كل دولة منها من المال والرجال.

٥ ـ دعوة مفتوحة لملايين المصريين بدخول العراق تحت شعار العراق بلد العرب وبحجة مساعدة مصر في محنتها الاقتصادية اضافة الى كونهم ايدي عاملة تسهم في بناء العراق، ومن المضحك ان نسمع أبواق الاعلام البعثي في تلك الفترة وهي تبث شائعات تعبر عن نوايا وأهداف الحزب من هذه العملية وأن القيادة ترى بأنه قد آن الاوان للعراقي في أن يعيش حياته في ظل البعث ملاّكاً سيداً مديراً لأعماله ويدع الاعمال الشاقة الاخرى لأيدي عاملة غير عراقية ـ شأن بعض دول الخليج ـ ويضحك بعض المساكين من المغفلين فرحاً ورضاً بهذه البشارة. ولقد خُدع المصريون أيضاً بشعار مساعدة مصر، اذ كان مراد البعث من جلب هذه الملايين من الشباب المصري هو استخدامهم في أمرين:

الاول: ان البعث مكلف بحرب لا قبل للعراق بها ولابد اذا ما شبّت من زج العراقيين جميعاً في نارها وحينئذ تواجه المصانع والمتاجر والمزارع نقصاً كبيراً في الايدي العاملة ولابد من املاء هذا الفراغ.

الثاني: ان شعب العراق ليس بالشعب السهل الذي يؤمن سطوته، والبعث يعرف ذلك جيداً، اذ ربما فكرت طائفة منه والحرب مستعرة في امر ما وقوة البعث منشغلة بالحرب، فلابد اذن من قوة بديلة يثق بها البعث لاستخدامها في قمع اية حركة محتملة في الداخل. وكان هذا هو الهدف الاهم وراء دعوة هذا العدد الهائل من العرب والمصريين خصوصاً، فلقد أشارت التقارير الى ثلاثة ملايين أو أكثر، وكان العدد في الواقع أكثر من ذلك بكثير فمن شمال العراق الى جنوبه ومن شرقه الى غربه وأينما ولّيت وجهك فثمّ وجه المصريين، ولم تر في مكان ما من العراق عشرة من العراقيين تخلفوا عن جبهات القتال لعذر الاّ ورأيت حولهم خمسين مصرياً. وهكذا استطاع الحزب حشد أكبر طاقة عربية واستخدامها في مآربه ولقد رأى العالم كم تطوع من هذا الجمع المغرر به في قادسية صدام المشؤومة وكم احترق منهم في لهيبها.

٦ ـ انهماك البعث في استغلال أقصى طاقات العراق الهندسية وتحت شعار خدمة المناطق النائية لتعبيد الطرق الحدودية بشكل مريب حيث كانت شبكة الطرق كلها تؤدي الى الحدود الايرانية ومن اماكن لم تكن مظنة استفادة المدن الحدودية منها فمنها خطوط بموازاة الحدود شمالاً وجنوباً، ومنها طرق تقطع الصحراء عرضاً الى حيث لا سكن ولا زرع ولم ندرك يومها سرّ هذا العمل الدؤوب الذي كان لا يتوقف ليل نهار.

٧ـ انشاء جسور وقناطر متعددة على الانهر الصغيرة والكبيرة ومنها تكميل بناء جسر السندباد الضخم على شط العرب وبسرعة قياسية، وظن الناس في البصرة وما حولها ان العراق يفكر في توسيع ومضاعفة فعالية الطريق الدولي بين البصرة وميناء خرمشهر الايراني بعد سقوط الشاه الذي بان التزلزل على كرسي عرشه.

٨ ـ استخدام الايدي العاملة المحلية في المناطق الحدودية بشكل كثيف تحت غطاء تحكيم مخافر الشرطة في انشاء الملاجئ الكونكريتية المحصنة وحفر شبكة وسيعة من قنوات المواصلات ومواضع الرمي.

٩ـ وصول كميات هائلة من الاسلاك الشائكة عن طريق ميناء البصرة، وقد سألت أحد الاصدقاء وكان يعمل موظفاً في الميناء عن عمله فقال متعجباً عملنا هذه الايام تفريغ حمولات السفن من الاسلاك الشائكة ولا اعلم ماذا تصنع الدولة بهذا المقدار من الاسلاك فلقد فرّغنا الى الآن من الحمولات ما يكفي لتسليك كافة العراق وما زالت السفن تتواصل، وكان ذلك قبل الحرب بخمسة أشهر تقريباً وذهبت الى الميناء فرأيت عين ما ذكره الصديق.

١٠ـ فتح معسكرات لتدريب المدنيين في انحاء العراق.

١١ـ دعوة عدة مواليد للاحتياط وايقاف تسريح الذين انهوا الخدمة الالزامية.

١٢ـ توسيع دائرة ودَور ما يسمى بالجيش الشعبي، فقد كان دوره الاساس المحافظة على أمن الداخل، فصدرت الاوامر الى قيادات هذه القوة الحزبية المحضة بضرورة توزيعها خارج حدود المدن وضمن قطعات الجيش تحت عنوان المعايشة وفسر صدام حسين هذا التصرف بأن القيادة على وشك اتخاذ قرار يتضمن زيادة في مرتبات أفراد القوات المسلحة فلكي لا يؤآخذ رفاق الحزب قيادتهم بهذا التصرف فقد رأت القيادة المصلحة في ان يعيش رفاق الحزب مع الجيش فترة ليقفوا على صعوبة مهنتهم ويثبت لديهم استحقاق افراد الجيش لهذه الزيادة.

وهكذا يرفد الحزب الجيش النظامي بزخم جديد من القوة، ويطعمه بخيرة رجالات الحزب من الرفاق ـ ولا أحد من الجيش أو الجيش الشعبي عرف سر اللعبة في حينها ـ فإضافة الى كونهم قوة اضافية فهم أيضاً عين ساهرة أمينة للحزب في الوسط العسكري. وما كشف سر التصرف هذا الاّ الحرب بعد وقوعها.

١٣ـ انهماك جهاز الاعلام في تهيئة الطعم الاعلامي اللازم للحرب عالمياً ومحلياً بانتاج الافلام والمسرحيات وكتابة المقالات والكتب التي تثير النعرة القومية والطائفية كفلم القادسية، التي كلفت الحكومة العراقية ملايين الدنانير، وقد هيأت كل تلك القنابل الاعلامية بخفاء بُعيد انتصار الثورة، وقد فاحت رائحة النفاق من هذا المنتوج الخبيث عندما أعلن البعث عن نواياه تجاه الحكومة الاسلامية، ففي الوقت الذي رحبت الشعوب العربية بانتصار الثورة في ايران بدأ الاعلام البعثي يدعو

الحرب الى المقاطعة واتخاذ الموقف المعادي وصبغت الحرب بعد افتعالها على انها حرب عرب وعجم وانها القادسية الثانية.

١٤ـ انشاء طريق ـ الخط السريع ـ الذي ربط العراق بالكويت والسعودية من الجنوب وبتركيا والاردن من الشمال والغرب، استعان البعث في ذلك باكبر الشركات العالمية لاتمامها في زمن قياسي وقد ثبت ايام الحرب حين انحدر سيل السلاح والعتاد من كل جانب على العراق ان وجود هذا الطريق كان من ضروريات الحرب.

١٥ـ تكديس مواد تموينية بكميات هائلة خارج حدود البرامج والخطط التموينية لاي بلد حال السلم كانت تنبئ عن أحداث غامضة مقبلة.

هذه الامور وعشرات أخرى من التصرفات الموحية بالاستعداد المسبق لهذه الحرب كانت تجري داخل العراق قبل الحرب ابتداءً من انتفاضة الشعب الايراني في عهد الشاه حتى انتصار الثورة ثم أخذت هذه الاستعدادات طابع السرعة والجدية بعد الانتصار.

وبدأ حكام البعث بتحيّن الفرص لخلق الاسباب المعذرة للدخول في الصراع مع ايران، وكانت البرقية الجوابية التي بعث بها الامام الخميني ردّاً على تهنئة صدام حسين بمناسبة انتصار الثورة القدحة العلنية الاولى لاظهار مكنونات العقيدة البعثية بالوضع الجديد، فلقد جاءت في برقية الامام عبارة والسلام على من اتبع الهدى. واتخذ صدام حسين من ذلك ذريعة لاتهام الامام باهانة رئيس العراق، واهانته تعني اهانة شعب العراق. وهكذا استغل هذه الفرصة في زرع بذور الكراهية في القلوب وهو يعلم جيداً ان اسلوب كتابة الامام هو الاسلوب الاسلامي الذي كان متداولاً في العهود الاسلامية وكتاباتها. بذلك رأى البعث نفسه في حل من حياكة باقي خيوط المؤامرة وبدأت المسرحية بفصلها الاول وكمايلي:

١ـ التحرشات الحدودية وحشد الجيش في الحدود بذريعة حماية امن الدولة في حدودها الشرقية.

٢ـ الخروقات الجوية الاستطلاعية المستمرة ومنها مسألة المروحية التي اجبرت على الهبوط في الاراضي الايرانية من قبل قوات الجمهورية الاسلامية.

٣ـ شن حملة اعلامية واسعة ضد زعماء الثورة وخرق الاتهامات لهم وخلق جو التوتر السياسي.

٤ـ التدخل السافر باسم العرب في شؤون إيران الداخلية كاثارة مسألة حقوق العرب في خوزستان ومسألة الجزر الثلاث ابوموسى وطنب الكبرى والصغرى. والمشادة الكلامية بين وزير خارجية العراق ووزير خارجية ايران الاسبق قطب زاده في احدى الاجتماعات الدولية غير خافية حيث يدّعي الوزير العراقي المسؤلية تجاه حقوق العرب ويرده قطب زاده بالمسؤلية تجاه المسلمين، وهي تهديدات مبطنة في ساحة الحرب الكلامية قبيل الحرب.

٥ـ طرح مسألة شط العرب وحقوق العراق حيث يرى العراق ان الشاه قد غصب حق العراق أيام كانت الحكومة العراقية مشغولة بحرب داخلية مع الاكراد.

٦ـ اختلاق قضية جامعة المستنصرية واتهام ايران علناً بالتضلع في مؤامرة اغتيال وزير عراقي وما اعقبت من قتل عدد من طلاب الجامعة.

٧ـ اتمام عملية الاتهام في اليوم التالي باستخدام عناصر من المخابرات في الهجوم على موكب تشييع ضحايا المستنصرية على ان يكون محل وثبة المجرمين المدرسة الايرانية الموجودة في شارع الرشيد لاثبات صدق ادعائهم بالامس، فالمهم اثبات ان الجريمة الجديدة مصدرها مؤسسة ايرانية وهذا يكفي لالصاق التهمة بايران. واذن فايران معتدية وقد تدخلت في شؤون العراق الداخلية، وما على صدام حسين الآن يعلن طبل الحرب في كلماته التي لا تنسى وهي: (والله والله والله ان الدماء التي اريقت في المستنصرية لن تذهب سدى).

ومن تلك اللحظة ترقب العراقيون الحرب. وهكذا انتهى الفصل الاول الذي عكس النوايا والاستعدادات ليبدأ الفصل التالي بتصاعد التحرشات الحدودية، واليك بعض مشاهداتي عن بدايات هذا الفصل:

كنت اقضي عطلة دراسية في احدى القصبات الحدودية وارى صنوف الجيش المتجه صوب الحدود وعملها الدؤوب في حفر المواضع وايجاد السواتر الترابية، وكان من بين العسكر المتواجد في تلك الجبهة بعض الضباط والجنود من معارفنا، كانوا

يزورونني في القصبة بين حين وآخر. سمعت في احدى الليالي أصوات انفجارات ورشقات بنادق، وتكررت في الليالي التالية، وبعد أيام قليلة من هذه الأحداث جاءني بعض الجنود من معارفي، فسألتهم عن سبب الرمي الليلي فأخبروني بالتفصيل عن الكمائن والكر الليلي على نقاط الحدود الايرانية، واضافوا ان القوة في هذا القاطع تلقت اوامر بتنفيذ مهمة تدمير سد ايراني قريب من الحدود، وان الوضع في الحدود يسير من سئ الى أسوأ.

لم تمر على تلك التحرشات الليلية الا أيام، حتى رأينا بطريات المدفعية المستترة في بساتين القصبة وما حولها وهي تفتح نيرانها على مدينة ايرانية قريبة في رشقات متفاوتة ولمدة يومين دون رد فعل من الايرانيين، وتصاعد اصوات اعتراض أهالي المنطقة على هذا العمل، خوفاً من ان ترد ايران على التصرف العراقي بالمثل فيصيبهم الاذى.

وفعلاً ردت ايران بعد يومين، وبما ان المدفعية العراقية كانت منصوبة خلف البيوت والبساتين المحيطة بالقصبة، وكان الرد الايراني يستهدف اسكات مصادر النيران العراقية فقد لاحت بعض القذائف بيوت القصبة وقتل على اثرها بعض الابرياء، وهكذا بدأ الاهالي بالنزوح وكان ذلك يوم ٤ / ٩ /١٩٨٠ اليوم الذي طالما ادعى صدام بان ايران كانت هي التي بدأت الحرب فيه. وهو اليوم الذي أمر فيه صدام حسين جيشه بالتحرك لتحرير منطقة سيف سعد على انها اراض تابعة للعراق حسب الترسيم الاخير للحدود لم تنسحب منها القوات الايرانية، وخلال ساعات اجتازت القوات العراقية حدود سيف سعد واحتفل الرفاق في كل مكان بهذا النصر. وبذلك اصبحت مسألة الصراع المسلح الامر الذي لا مفرّ منه، وبدأت الارض الحدودية في تسخين مستمرحتى يوم ٢٢/٩/١٩٨٠المشؤوم.

أعلن العراق رسمياً عن حرب شاملة مع ايران، في خطاب القاه صدام حسين يوم ٢٢/ ٩ يوعز فيه الى قواته بالهجوم على ايران برّاً وبحراً وجواً، واضعاً اتفاقية الجزائر الموقعة بين الطرفين عام ١٩٧٥م تحت قدميه، واعلن رفضه من جانب العراق، فأشعل بذلك فتيل نار لا يحيط بآثارها واضرارها الاّ الله. واستمرّ الهجوم بعنف ودخلت

القوات العراقية بعد تقديم خسائر كبيرة في العمق الايراني في الجنوب والوسط والشمال وهي تدمّر الحياة كدأبها فقتلت الاحياء وسلبت الممتلكات وخرّبت المنشآت والمدن.

ويعلن حكام بغداد ضمّ منطقة وسيعة من الجنوب الغربي الايراني الى العراق ورسم ذلك في خريطة جديدة طبعت في الكتب المدرسية وغيرها، وكان يومها في غفلة وسوء تقدير اذ لم يحسب لفشله البعيد في هذا الصراع أي حساب ليصير بالتالي مثار سخرية الصغار والكبار يوم ردّ بخفي حنين في ١٩٨٨/٨/٨ والغريب ان حكام البعث لم يدعوا في أوائل أيام استيلائهم على بعض اراضي خوزستان تابعية هذه الاراضي للعراق بل ادّعوا أن هذه الاراضي عربية وانهم بعد اكمال تحريرها سوف يطلقون عليها اسم دولة الامارات العربية الشرقية.

ان الحديث عن حرب السنوات الثمان طويل طول ايامها، ومرّ مرارة جراحها وآلامها ومساوئها ولا يسعه كتاب، ونحن اذ أشرنا اليها في هذه الوريقات فلأنّا أردنا ان نشير الى الكوارث التي جلبها حزب البعث على العراق. ولمّا كانت هذه الحرب المدمّرة احداها كان لابد من الاشارة الموجزة الى بعض جهاتها لا جميع تفصيلاتها. فبعد ان ذكرنا الدور النيابي لحزب البعث عن الاستعمار في شن هذه الحرب وتطرقنا الى الاسباب الحقيقيه وراءها والملابسات التي احاطت الاعذار التي وجّهوا بها شرعية الحرب واغفلوا بها الرأي العام والشعب العراقي بالخصوص بقي ان نشير الى جهات اخرى توضح دور العمالة البعثية بصورة اجلى.

المعروف انه ما وقع صراع في جهة ما من الارض الاّ وسارعت دول العالم باتخاذ موقف سياسي أو عسكري من تلك المسألة، وقد وقعت صراعات كثيره عبر التاريخ توزعت قوى العالم فيها على طرفي النزاع فدولةعظمى مع جبهة واخرى مع الجبهة المضاده، واقماركل دولة منها تدور في فلكها، وغالبا ما كانت دول العالم تتوزع في جبهتين بتفاوت بسيط في ميزان العدد والقوة سواء في الصراع بين دولتين مختلفتين أو فئتين متصارعتين في دولة واحدة فالحرب العربية الاسرائيلية والفيتنامية والكورية واخيراً الحرب الافغانية وغيرها الكثير كانت نتائجها تابعة لكفاءة القوتين المتصارعتين

اساساً فامريكا تخسر مرّة كما في فيتنام والاتحاد السوفيتي تخسر اخرى كما في اليمن الجنوبية مثلا وكذا المسألة الافغانية. فما من صراع في العالم الاّ واقدام العمالقة في منطقة الصراع كل مع جبهة.

وكان المؤمل ان تكون الحرب العراقية ايضاً من مصاديق هذه القاعدة، لكن الذي ثبت هو مخالفة هذه الحرب لتلك الموازين فالدول القوية المتضادة كانت هذه المرّة مع طرف واحد وهذا الذي يثير الدهشة، ففي مدى ايام الحرب الباردة بين امريكا والاتحاد السوفيتي ما رأينا دولة وضع السوفيت فيها اقدامهم الاّ ووقفت امريكا من تلك الدولة موقف المعادي وما من دولة مالت بموقفها نحو امريكا الاّ وحرّض السوفيت شعب تلك الدولة على الثورة والاطاحة بحكومتها تحت غطاء حركة وطنية تحررية. لذا من العجيب ان نرى تصافح امريكا مع الاتحاد السوفيتي في العراق، فالعالم باسره يعلم ان البعث دخل العراق تحت ستار الاشتراكية وبدعم اساسي من الاتحاد السوفيتي، وما ثبتت اقدام الحزب الاّ بقوّة السلاح الروسي، ومعاهدة الصداقة والتعاون الطويلة الامد بين البلدين خير دليل على عمق العلاقات، وفي مثل هذه الحالة كان المتوقع ان تقف امريكا من العراق موقف المتنفر سيما وان العراق كان يتجاهر بعدائه لامريكا ويدعو الى محو اسرائيل ويكيل الشتم للعرب بسبب تهافتهم على امريكا وتهاونهم في مسألة استرجاع فلسطين وتحرير القدس... فماذا كان وراء هذا التصالح؟؟.

واما مواقف الدول الاخرى من القضية فكانت معروفةً نتعرض لبعضها باختصار، ففرنسا كانت صريحة في موقفها سياسياً في المحافل الدولية وعسكرياً في ساحات القتال، فطائرات الميراج وصواريخ الاكزوسيت وطائرات السوبر إتندار التي استأجرتها مع طياريها الى العراق لضرب ايران والخبراء العسكريين وراديو مونتكارلو التي اطلق العراقيون عليها اسم (مونتي بغداد) كلها شواهد حيّة على دخولها الحرب لصالح صدام. في الوقت الذي لم يسجل نقطة ايجابية واحدة في السياسة الفرنسية لصالح الشعب الايراني منذ نشوب الحرب والى الايام الاخيرة منها.

واما بريطانيا فمعروفة في تعاملها مع الاحداث وذيليتها في العقود الاخيرة غير

خفية على احد، فهي تعاملت مع القضية بمكر الانكليز حيث حاولت التظاهر بمظهر المحايد من جهة، ومن جهة اخرى تمد اخبث يد مساعدة الى العراق، فالمواد الاوليّة للغازات السامّة وبعض المصانع المنتجة لها ومواصير المدافع العملاقة التي يصل مداها الف كيلومتر وغيرها كانت تشحن الى العراق عن طريق ايلات والعقبة، وفي مواقفها السياسية كانت المقرّرة لآراء امريكا وان كانت تميل ببعض لسانها الفارغ على العراق منتقدة الجرائم البشعة التي كانت ترتكب بين حين وآخر خلال ايام الحرب في تصريحات موجزة وان كانت تعلم ان السم الذي أباد المدنيين الابرياء في حلبجة مثلاً كانت سموم بريطانية.

واما الصين فقد كانت في حيرة من امرها فمن جهة دخول الغرب في هذا الصراع لصالح العراق ظلماً كانت تود الوقوف مع ايران لما كان يترتب على مثل هذا الموقف من مصالح مستقبلية للصين ولكنها بسبب قوة التحالف المضاد لايران ترددت في العواقب واحتملت هزيمة ايران، فتبنت الاعتزال العملي ظاهراً والاستسلام قولاً لمقررات مجلس الامن والامم المتحدة التي كانت تمليها امريكا.

اما باقي الدول فقد كانت تدور في فلك التحالف العالمي قولاً وعملاً، والمنصف يرى وكأن العالم قد اجتمع في العراق لمحاربة ايران باستثناء دول ثلاث مستضعفة اعلنت مساندتها لايران وهي سوريا وليبيا من العرب وكوريا الشمالية، ولو تفحصنا اسباب مواقفها لرأيناها اعلامية سياسية اكثر من كونها عملية واقعية، فان ايران لن تستفيد من قوّة تلك الدول شيئاً لضعفها في ذاتها، ولم تتجرأ دولة اخرى غير هذه الثلاث في اظهار رأيها الحقيقي في هذا الصراع، والاجماع الدولي المشؤوم قد تم على ضرب الثورة الاسلامية التي اعلنت استقلال ايران التام وعدم تبعيّتها لأية قوّة في العالم تحت شعار لا شرقية لا غربية.

وما كان هذا الموقف بعيداً أو غريباً اذ أن موقف الاسلام من الظلم والظالمين معروف، وغيرخفي أيضاً مظلومية مليار مسلم في هذا العالم الواسع على يد الاستكبار. وبقاء الثورة الاسلامية يعني انتعاش الاسلام، ويعني زرع بذور الامل في قلوب المسلمين، ويعني اخيراً احتمال ولادة حركات اسلامية جديدة تحذو حذو ايران في التخلص من

التبعية والاستضعاف. فالدول الاستعمارية اذن مهددة من قبل هذه الثورة الفتية، ولابدمن التكاتف ووضع الخلافات جانباً للانقضاض سويّة على هذا الوليد في مهده، وبهذا يرتفع العجب، اذن لا غرابة في أن نرى الاتحاد السوفيتي وبجانبها امريكا وبريطانيا وفرنسا والمانيا وباقي الاقمار على مائدة واحدة وفي خيمة حزب البعث العربي الاشتراكي. فالحرب في الواقع هو حرب الدول الاستعمارية مع الشعب الايراني المسلم الثائر الذي تحرر للتوّ من قيود المستعمرين، والذي ينبغي ان يدفع ثمن الحرب هو الشعب العراقي المسكين، فلتقرّ عيون البعثيين بهذه العمالة وتعساً لحظ الشعب العراقي العاثر.

وبدأت معدّات القتل والتدمير تنحدر نحو العراق عن طريق الاردن والمملكة العربية السعودية والكويت وتركيا الدول المتاخمة للعراق، ومليارات الدولارات من مواد مختلفة ملأت أسواق العراق، والاستعمار واقماره قد تعهدوا بتلبية كل احتياجات العراق العسكرية والمالية وغيرها وتمرّ ليالي الحرب العصيبة وكلما ازداد الكفر ضرباً كلما ازدادت صخرة الاسلام في ايران صلابة حتى كاد العالم ان يركع امام ابناء الاسلام عام ١٩٨٢ لولا...؟

تلقى جيش البعث من جند الاسلام ضربات ماحقة وبدا الضعف واضحاً في صفوف الكفر، ويضطر الشيطان الاكبر على الايحاء لرموزه من عبيد أمة العرب من الحكام بالاسراع في رفد الجبهة العراقية بالمقاتلين من أفراد الجيش النظامي، فبدأت الأفواج والألوية تصل بغداد على وجه السرعة، اذ أرسلت كلّ من الاردن واليمن والسودان قطعات عسكرية نظامية كما أوعزت مصر وبعض الدول الأخرى الى رعاياها في العراق بالتطوع ضمن ما يسمى بالجيش الشعبي. لكن هذا الاجراء لم يغير شيئاً من الحقيقة المرّة في جبهات القتال، فالضربات المهلكة التي توردها القوات الاسلامية على الفيالق العراقية كانت تأخذ حصتها اليومية من قوات الامداد الجديدة بين قتل وجرح وأسر حتى بلغت جراح هذه القوات حداً اضطرت معه حكوماتها الى تكتيم أخبار هذه الخسائر لأن اعلانها يعني اعتراض شعوبها وخلق اجواء لا يمكن التكهن بعواقبها...

وتبقى الحيرة حاكمة على جبهة الكفر من جديد، فجميع المحاولات التي بذلت من أجل وقف القتال ـ لغرض انقاذ البعث ـ قد باءت بالفشل امام اصرار القيادة الايرانية في مواصلة الحرب حتى احقاق الحق وكان ظن الاستكبار الذي اوجد هذا التحالف الرهيب أن ضربة مفاجئة قوية كافية في اسقاط الحكومة الاسلامية في مثل الظروف التي يشن فيها الهجوم، فالثورة في بدايتها والجيش الايراني مفكك الاوصال بعد اعتقال كبار جنرالات جيش الشاه وهرب عدد آخر منهم والثوار منشغلون بالوضع الداخلي وليس ثمة قوة تذكر في الحدود قادرة على صد هجوم جيش العراق المنظم والمعبأ بأحداث الاسلحة....

ورغم زحف قوات العراق نحو عمق لا بأس به في الساحة الايرانية الا انه لا مؤشر في وقته كان يشير الى زعزعة النظام. فتوجهت رموز التحالف الى المنظمات الدولية لاعلان وقف اطلاق النار والطلب من ايران الخضوع الى مطالب العراق وكانت تلك الشروط المقررة في نظر الاستعمار تحقق الحد الادنى من القيود التي يجب فرضها على ايران في الوقت الراهن. فالقوات العراقية مسيطرة على مساحات شاسعة من الاراضي الايرانية، مستحكمة مواضعها بشكل جيد وتحت اشراف امهر مخططي الخطوط الدفاعية في العالم، ولا يتصور اقتحامها من قبل القوات الاسلامية لمدة طويلة يواصلون فيها الضغط على ايران لقبول الاستسلام مقابل تلك الاراضي، وقد غفلوا عن قدرة الله التي منّ بها على جند الاسلام، حيث امكنتهم تلك القوة الالهية من اكتساح تلك الخطوط جميعها ودفع الجيش العراقي الى عقر داره ليقلبوا السحر على الساحر.

وحاولت الدول المؤججة لنار الحرب بشتى الوسائل ارغام الجمهورية الاسلامية على قبول وقف اطلاق النار لكن دون جدوى... فاجتمعت كلمتهم اخيراً على سلوك الطرق الدنيئة الاخرى لتحقيق غرضهم فبدأت الصواريخ المختلفة تتوارد ومصانع انتاج السموم بانتاج اكبر الكمّيات وحتى القنبلة النووية لم يبخلوا بها على صدام حسين.

وجاء دور حرب الصواريخ ودك المدن الآمنة الآهلة بالسكان بها كما اخذت الطائرات باستخدام اطنان القنابل المحشوة بالغازات السامة القاتلة في جبهات القتال والقصبات الحدودية ولولا مشيئة الله في اقتناع ايران بقبول وقف اطلاق النار لكنّا

نجد من المآسي مالا سابقة لها في التاريخ. فاسلحة الدمار الشامل التي زُوِّدت بها العراق ـ والتي كُشِف عنها النقاب بعد فترة من الزمن وبالضبط بعد هزيمة العراق في حرب الكويت ـ كانت قد أُعدت لضرب المدن الايرانية الكبيرة كورقة الاستكبار الاخيرة في هذه اللعبة القذرة ضد ايران الاسلام. ورغم انف الاعداء فقد انتهت الحرب بنصرٍ مبينٍ للاسلام وهزيمةٍ منكرة لجيوش الكفر العالمي. نعم انتهت الحرب في ٨/٨/ ١٩٨٨. ولكن لصالح من؟

ان نظرة احصائية عابرة فيما احترق بنار هذه الحرب كافية في اثبات الخسارة العظيمة التي مني بها الشعب العراقي من جرّاء الصفقة البعثية الامريكية واليك بعض تلك الأضرار:

١ـ تدمير كامل لبنية العراق الاقتصادية، على رغم المساعدات المالية السخية التي قدمتها الدول الحليفة للعراق فقد خرجت حكومةالبعث ـ مالكة الـ (٤٠) مليار دولار ـ والمشاريع العامرة، خرجت من الحرب وهي مدينة بعشرات المليارات من الدولارات للدول الخارجية وتدمير أكثر المشاريع الحيوية في العراق.

٢ـ قتل مئات الالوف من أبناء الشعب العراقي المسكين وفقدان مئات الالوف وتعويق امثالها منهم.

٣ـ تهجير اكثر من مليون مواطن عراقي من القاطنين في المدن والمناطق الحدودية من جراء الحرب، وترك ممتلكاتهم من دون ان تقدم الحكومة البعثية اية مساعدة لهم بعد التهجير.

٤ـ تدمير المنشآت الكثيرة التي بنيت من أموال الشعب دون ان يستثمر الشعب شيئاً من نتاجاتها، مما اجبر الناس على تأمين احتياجاتهم من المواد المستوردة وبأسعار عالية.

٥ـ تدمير الزراعة والرعي في العراق بعد سوق العراقيين الى الخدمة العسكرية حيث اضطرّوا الى ترك أراضيهم طيلة سنوات الحرب ـ بسبب غلق البعث باب التسريح في وجوههم ـ اضافة الى صيرورة الاراضي الشاسعة شرقي العراق مسرح عمليات عسكرية مما جعلتها غير قابلة للاستفادة بعد تخريب قنواتها وزرعها بالالغام.

٦ـ تدني المستوى العلمي في المدارس العراقية بسبب سوق المعلمين بشكل وسيع الى جبهات القتال فكانت المدرسة الواحدة لا يتعدى كادرها التعليمي ربع الملاك.

٧ـ القضاء على الطاقات العلمية الشابة بسوق خريجي الجامعات على الاطلاق وبعدالتخرج مباشرة الى الخدمة العسكرية ولمدة طويلة بلغت سنوات الحرب كلها مما أدّى الى نسيان معلوماتهم بفعل ظروف الحرب القاسية والمعاناة النفسية الطويلة.

٨ ـ انتشار الفساد الاخلاقي في المجتمع بسبب الشباب الطائش المستورد من بعض الدول العربية، وتفكيك العائلة العراقية بغياب رجالها عنها.

٩ـ تحطيم اقتصاد فئة كبيرة من ذوي الدخل المحدود من جرّاء الخدمة الطويلة والمرتب المحدود الذي كانوا يتقاضوه من الجيش.

١٠ـ تفشي الفساد الاداري والرشوة في كافة مؤسسات الدولة سيّما الجيش مما ادّى الى رواج التزوير وانتشار الظلم.

١١ـ طغيان روح الارهاب في نفوس البعثيين، وما أعقب ذلك من زرع الخوف بين الناس وفقدان الثقة بينهم، كل ذلك بسبب استخدام البعث سياسة العنف في تجنيد الناس لغرض زجهم في محرقة القادسية، فلقد صدرت الاوامر من قيادة الحزب الى من تبقى من ميليشيات البعث في الداخل بالقاء القبض على كل عراقي يدب على الارض صغيراً كان أو كبيراً لغرض ارفاد جبهات القتال بهم، واي بعثي لم يأت بأربعة اشخاص فما فوق سيكون هو المرشح للسوق الى القتال ـ وكانت السواتر الامامية وجبهات القتال عموماً قد ارعبت الناس والبعثيون سبقوا غيرهم في الخوف منها ـ ولذلك تراهم يسرحون ليل نهار في الازقة والطرقات بحثاً عن عراقي حي يقدّموه كبش فداء ويدفعوا به عن انفسهم شرّ البوابة الشرقية للوطن العربي.

والناس المساكين من الشيخ الطاعن في السن الى الطفل الذي لم يبلغ الحلم ـ من غير المشمولين بالخدمة قانوناً ـ في هروب دائم ولواذ عن عيون البعثيين. ولو رأى من لم ير البعث، الرفيق البعثي الذي لم يحض بنصيبه من الافراد، كيف كان يتشبث

في تحقيق مأربه باللامعقول لولّى من البعث فرارا. فكم خرق السفلة من افراد الجيش الشعبي حدود القانون والشرع في طريق ملاحقة الناس، وكم اعتدوا على حرمات البيوت والاشخاص، وكم شوهدوا في ظلمات الليالي ومعهم السلالم كي يدخلوا البيوت من سطوحها لا من ابوابها، كما امر الله ليداهموا الرجل في غرفة نومه، وما على الشّاك في قولي الاّ ان يسأل اي عراقي عاش مرارة تلك الايام العصيبة.

١٢ـ انهيار واضح في معنويات العراقيين والجيش بصفة خاصة، بعد الهزائم المتلاحقة والخسائر البشرية والمادّية الكبيرة التي منيت بها العراق طيلة سنوات الحرب.

١٣ـ تنازل العراق عن مناطق شاسعة من الاراضي الحدودية الغنية بالنفط والفوسفات لصالح السعودية والاردن تحت عنوان ترسيم الحدود مقابل ما منّت به الدولتان على العراق من موقف في الحرب.

١٤ـ تشويه سمعة العراق دولياً بسبب ارتكاب حكام البعث جرائم حرب من قبيل قتل المدنيين وتدمير المدن واستخدام الاسلحة الكيمياوية ضد الايرانيين بل والعراقيين أيضاً في حلبجة وأهوار العمارة والناصرية.

١٥ـ اعدام الآلاف من الشباب العراقي الرافض للحرب والفار من جبهات القتال واعتقال ذويهم.

١٦ـ هدر أموال عراقية بصرف البعثيين مبالغ ضخمة في شراء ذمـــم الدول ووسائل الاعلام لصالح الحزب في الحرب.

١٧ـ هجرة العقول العراقية الى خارج العراق هرباً من محرقة القادسية وارهاب البعث، وبذلك ضاعت الثروات العلمية الوطنية.

١٨ـ الخروج بخفي حنين من ساحة (قادسية صدام المجيدة) فاضافة الى عـدم بلوغ البعث لاهدافه التي طبّل لها كثيراً قبل وأثناء الحرب، فقـد حمّل مسؤولية بدء الحرب والغرامات المترتبة عليها في قرار مجلس الامن المرقم ٥٩٨.

هذه بعض ثمرات الحرب، وهذا هو حصاد العراقيين من زرع البعث بعد كل تلك السنين، ومع ذلك نرى البعثيين يتغنون دون حياء بشعارات الصمود والعز والشموخ وينشدون لروح النصر التي عرجت الى الملكوت الاعلى بعد تركها بدنها من

غير دفن في البوابة الشرقية للوطن العربي، ويحتفلون بمنح المهزومين من ضباط البعث الذين حاولوا عن طريق الباس العراقيين ثوب الذل نصرة الحزب أوسمة شجاعة. ولقد كان من بين هؤلاء الذين منحوا أنواط متعددة م أول (...) الذي فجر صاعق رمانة في يده ليهرب بتعويق نفسه من واجب بسيط، ومنهم النقيب (...) الذي أضحك الموتى في معركة فكّة عندما ضحى بخُرئه دون دمه، وليس هذا افتراء فقد رآه عدد كبير من افراد الفوج الثالث لمش (...) وهو يهرول صوب الخطوط الخلفية هرباً من المعركة يسبق ريحه النتن. والجند المنكسر المنهك من خلفه يعوقه الضحك الشديد من اللحاق به.

واخيراً اليك خطاً بيانياً لمجمل مواقف البعث وشعاراته حتى نهاية الحرب، فقبيل الحرب كانت الشعارات هي تحرير فلسطين والقدس، ولا تراجع، العراقي يتقدم، واسرائيل لقيطة، واللعنة على خونة العرب وعلى الامبريالية، وعروبة الجزر الثلاث في الخليج، تتوج هذه الشعارات قمة بغداد لنصرة فلسطين. ثم بدأت هذه الشعارات بالافول شيئاً فشيئاً بعد شروع الحرب حتى اختفت تماماً في بدايات عام ١٩٨٢ الذي يعتبر عام الانهيار التام للبعث وبداية الحركة التراجعية في المسير. فصدام حسين رأس النظام الذي كان يبدو متحمساً في الدعوة الى حرب اسرائيل عاد ليظهر امام شاشات التلفزيون ويعلن بصراحة ان اسرائيل حقيقة لا يمكن انكارها وأضاف:

"ومن قال من حكام العرب ان اسرائيل ليست حقيقة فهو يخادع نفسه...".

ويتملق سفير النظام البعثي في الولايات المتحدة لاسياده فيعلن في مقابلة اذاعية اذاعتها راديو واشنطن: ان العراق يعتبر الساتر الاول للدفاع عن دول تهم امريكا في المنطقة طالباً بذلك يد العون الامريكية. ولا اعرف دولة تهم امريكا في المنطقة بشكل اساسي غيراسرائيل اذن يعلن البعث صراحة ان العراق ساتر أول للدفاع عن اسرائيل، وأين هذا من شعار تحرير فلسطين والقدس. ويمضي الحزب في هذا الاتجاه قدماً، ويفتخر صدام حسين بنتائج استغاثاته الذليلة حين يعلن بفرح كبير أن سيادته يحط علماً بالتحركات الايرانية في جبهات القتال خلال ساعات. وما كان ذلك الاّ بفضل الاقمار الصناعية التجسسية الامريكية وطائرات الآي واكس التي سخّرتها أمريكا في خدمة العبد الجديد.

وتدخل اسرائيل الساحة بشكل مفضوح، فمن جهة تؤمّن للعراق خط الملاحة عبر ايلات والعقبة لتنقل السفن آلات الدمار الشامل من صواريخ ومواد كيميائية ومصانع لانتاج الغازات السامة، وإذا ما جنحت سفينة من تلك المحمّلة بالموت اسرعت السفن الاسرائيلية لنجدتها وهدايتها الى العقبة الاردنية. ومن جهة أخرى ترسل طائراتها عبر الاجواء الاردنية والسعودية والعراقية لتصل الى ضواحي بغداد وتضرب مفاعل تموز النووي دون ان تتصدى لها قوات الدول الثلاث خصوصاً المقاومات العراقية التي كانت تتمثل في أرقى أنواع صواريخ سام الروسية ومئات الطائرات المطاردة والتي كانت في حالة تأهب قصوى. ثم تعلن اسرائيل امام العالم عداءها لحزب البعث وخوفها الشديد من التطور التسليحي العراقي. ترى أي الجهتين نصدق؟ ضربة لمفاعل تموز كدليل عداء، أم سكوت ثماني سنوات على تردد السفن المحمّلة بمعدات الدمار عبر ايلات والعقبة والى دولة تهدد اسرائيل بالفناء كدليل صداقة.

الظاهر ان عملية ضرب المفاعل العراقي كانت مظاهرة اسرائيلية بالعداء لحزب البعث لابعاد سمعة العراق من التشويه، فان اسياد البعث يعلمون جيداً بان الكشف عن المساعدات الاسرائيلية للعراق يعني سقوط البعث في نظر شعب العراق والشعوب العربية. اذن لابد من طعم اعلامي للتغطية وكتمان تلك المساعدات السرية في الاصل والتي يفضحها أحياناً فضول بعض وسائل الاعلام. وان كان ولابد من دور مسرحي تقوم به اسرائيل خدمة اضافية للعراق فليكن عملاً مفيداً، وبما ان الوضع العسكري العراقي في جبهات القتال في تدهور مستمر ولا يلوح في افق الحرب بصيص املٍ بالنصر بل تشير الدلائل الى عكس ذلك فالقوات الايرانية في تقدم مستمر وهي مصممة على مواصلة الحرب حتى النصر، والاوضاع الداخلية في العراق غيرامينة، وفي بقاء المفاعل النووي على حاله مع احتمال سقوط الحكومة العراقية الخطر الكبير، فلتكن المهمة الاسرائيلية هي ضرب المفاعل ففيها الظاهر الجيد للعداء وفيها ايضاً تحريم العدو المحتمل من منافع هذا المشروع الخطير.

وعلى كل حال فقد اثبت البعث بتصرفاته زيف شعاراته وبقدرما قال لا لأمريكا في شعارات فارغة للاستهلاك المحلي في المسرحية التالية اعني مسرحية حرب الكويت،

قال نعم لامريكا عملياً قبلها وبعدها. فأي امر امريكي لم ينفذه البعث اثناء القادسية وبعد حرب الكويت؟ واي أمر للاسياد رفضه حكام البعث بل اي تصرف مستقل كان للبعث غير امتشاق السيف بوجه العراقيين هذا اذا لم نقل بأن اذلالهم للشعب كان بوحي من الاسياد ايضاً، فلقد كانت الاوامر تترى في كل صغيرة وكبيرة، منها علنية عبرالهواتف، ومنها سرية عبر الرموز.

ومن ينسى سُعاة بريد الامبريالية الذين تطوعوا لنقل تلك الرسائل من والى بغداد وعبر عواصم الغرب. حتى ان عوام الناس باتوا يترقبون وقوع حدث هام بمجرد سماعهم وصول امثال اولئك السعاة الى بغداد. ولربما اتهموا الملك حسين بالذات في انه يسعى تحت غطاء معونة الاخوة العراقيين في قتل شعب العراق انتقاماً لمقتل اقاربه من الملوك الذين حكموا العراق سابقاً على يد الشعب العراقي. اذ انهم كانوا من البيت الهاشمي وقد قتلهم العراقيون أو أعانوا على قتلهم لعمالتهم للانجليز والغرب.

فماذا لدى البعث غير الشعارات التي اكل الدهر عليها وشرب. وما الذي جناه العراق من دوحة البعث النكدة غير ما ذكرناه. وهل دخل بطون العرب غير زقوم القادسية من يد هذه الزمرة التي لبست قميص القومية زوراً.

فليتقدم العراقي بقيادة البعث نحو درك آخر من دركات جهنم ألا وهي غزو الكويت وحرب التحالف. وهو ما نود الاشارة اليه في الفصل القادم ضمن عرضنا لمسرحيات حزب البعث العربي الاشتراكي. حيث ارتكب ابطال البعث حماقة جديدة بعد انتهاء القادسية لإرجاع الفرع الى الاصل في تلك التمثيلية المعروفة بأم المعارك. فما هي قصة الكويت؟ وماذا سطر البعث على سماط ام المعارك للشعب العراقي المسكين؟.

الحرب البعثية الكويتية

[أم المعارك]

لم يتضح بعد السبب الكامن وراء الغزو العراقي للكويت، فهل كان من اجتهادات صدام حسين، أو كان وحياً من الأسياد؟ وعلى أي حال فقد وقع خارج انتظار العراقيين، إذ لم يتوقع أحد قيام حكومة البعث بأية مغامرة جديدة بعد ان خيّم كابوس الحرب العراقية الايرانية على كامل الاجواء في العراق. ولكن الذي يبدو للمحلل في الوهلة الأولى هو ان يكون السبب كامناً في احساس مسؤلي حزب البعث بالحرج من نتائج القادسية. فقد بدأت الأسئلة تتردد على الالسن بعد انتهاء الحرب عن الهدف من الحرب مع ايران، وعن ادّعاءات الحزب قبل وبداية الحرب والمحصّلة النهائية. والظاهر ان الحزب لم يجد ما يبرر به خطأه الذي كلف العراقيين الكثير، فكر في تجاوز محنة الحيرة هذه بالسعي في ايجاد الطعم الملائم لهذه الأفواه التي باتت تهدد سمعة الحزب في الشارع العراقي، اذ طالما وعد الحزب العراقيين باسترداد حقوق العراق الضائعة بسبب ضعف الحكومات التي كانت حاكمة في العراق، اضافة الى ان الحزب قد منّى الشعب بالغنى والسعادة ايضاً، في حين اصبح نصيب كل عراقي من قادسيتهم الفقر والتعاسة.

لم يدلّ العقل الفارغ لرموز النظام الاّ على رهان خاسر جديد، ولم يوسوس لهم الشيطان الاّ في التخطيط للسطو عل الكويت المعروفة بكثرة الثروة، فالأجواء مساعدة لخطور فكرة مثل هذه، والأرضية مهيأة لنسج حكاية مع دويلة الكويت الغير البعيدة عن المنال سيّما ودنانيرها ولمعان ذهبها أخذت بألباب المارد المفلس المحجورعليه، فالعراق ومنذ مدّة تدّعي بعض الحقوق في أراضي الكويت الحدودية، وهناك ادّعاء من حكومات عراقية سابقة بتبعية الكويت للعراق وحكاية عبد الكريم قاسم ما زالت في الاذهان، فالفرصة ذهبية يا أبا عدي وانت القادر على ذلك فأرقى أنواع الاسلحة من التي تفضل بها الاستكبار عليك تحت الاختيار ومن يجرؤ من العرب في التصدي. فالعملية متعددة المنافع فمن جهة الاعلام ترخي الانتصار الحتمي فيها الستار على

هزيمة القادسية، ومن جهة تحرير الارض واستعادة الحدود فأرض الكويت بديلة عن الأحواز التي فشلت القادسية في الأحتفاظ بها كأرض عراقية محررة، وفي مساحة الكويت الكفاية في بسط يد العراق على شمال الخليج. ومن جهة المكتسبات المادية ففي الذهب الكويتي وممتلكات الكويتيين البركة.

هكذا يمكن تقريب تصوير فكرة الغزو في العقل البعثي وبه ربما يوجّه تحركهم في هذا الاتجاه، وهو تفسير غير بعيد، وان كان يحتمل أيضاً ان تكون مؤامرة أجنبية على العرب للهيمنة عليهم بشكل أوسع باثبات ضعفهم واحتياجهم المبرم الى حماية القوى الكبرى، أو مؤامرة على العراق الذي اغترّ بحسب الظاهر بما حصل عليه من السلاح المتطور فأبى الانصياع التام للأسياد بعد القادسية حين أرادت كل دولة ساعدت البعث في البقاء حلب ما استطاع من ضرع العراق وتزاحم أهل الفضل على صدام حسين ليقسّم ميراثه من العراق ضحية حزب البعث فلم يفعل، فحفروا له جبّ الكويت ليقع فيه وينالوا منه حال أسره ما لم يتمكنوا منه أيام حرّيته، وهذا أبعد الاحتمالات. أو أنها كانت مؤامرة لإبادة الشيعة ليس الاّ، وهذا أقرب الاحتمالات.

فهزيمة البعث في الحرب مع ايران، وعدم تمكن امريكا من الوصول الى مرادها الذي كان يتمثل في سقوط الدولة الاسلامية، وضعف حكومة البعث بسبب الحرب، والنسبة العالية من الشيعة المتواجدين في العراق والمؤيدين للثورة الاسلامية، والدعم المعنوي والمادي المحتمل لهؤلاء من قبل ايران، وآثار هزيمة القادسية على الشارع العراقي عموماً واستغلال ذلك من قبل المعارضة العراقية في الداخل والخارج للنيل من النظام البعثي، كل تلك مؤشرات لا تبشر بخير بالنسبة لاستمرار حياة حزب البعث الوكيل الرسمي للإمبريالية.

واذا ما وضعنا قوّة المتصارعين على السلطة من قوى المعارضة في الميزان لوجدنا ان كفة الشيعة هي الارجح على الاطلاق فهي القوّة التي يخشى منها على البعث، فاذا تمّ ضرب هذه القوّة فلا خوف على البعث من باقي القوى. وعلى هذا اتخذ التحالف العالمي القرار بضرب وسط وجنوب العراق موطن الشيعة بطائرات ودبابات وصواريخ تنطلق باسم تحرير الكويت وعلى كامل الحياة في تلك المناطق ومن ثمّ يتم توجيه

الضربة القاضية الى هذه الطائفة عن طريق الامم المتحدة ومجلس الامن بفرض الحصار الاقتصادي الذي لم يقصد سهم رميته الاّ الشيعة فقط بعد اعفاء صدام حسين وعشيرته بل وبني مذهبه من الحصار بفتح اسواق الاردن واسرائيل وموانئهما بوجه تجارتهم، وتكفّل منظمة الامم المتحدة الاكراد من الناحيتين الامنية والاقتصادية.

وما زال السر الواقعي وراء غزو الكويت وعمليات عاصفة الصحراء مخفيّ في طيّات الاحتمالات، وسيبقى الواقع في هذه القضية مشوش المعالم ـ وإن قرب الاحتمال منه ادنى من قاب قوسين ـ حتى بلوغ سنّ اليأس الذي حكم به قانون السياسة على الحق المسجون في زنزانات الباطل. والاّ لو سمح قانونها بفضح اسرار الأحداث فوراً لأنذر بذلك أساس سوق السياسة بالافول ولما وجد الممثلون في العالم بأسره مسرحاً واحداً لعرض برامجهم المسرحية وهو خلاف فرض السياسة. فلندع أمر كشف الحقائق الى التأريخ ولنعد الى المسألة البعثية الكويتية من بدايتها.

ان مشكلة الخلافات الحدودية بين الدول قديمة قدم السياسة وقلّما نجد دولتين ليس بينهما نقاش حول الحدود. لكن المسألة تختلف في الحدود العراقية الكويتية، ففي الوقت الذي تدّعي فيه الحكومة الكويتية الاستقلال التام أرضاً وشعباً وضمن حدودها الحالية الشاملة لليابسة والجزر وبحكم المواثيق الدولية، نسمع الحكومات العراقية المتعاقبة بين المدعية لتمام الاراضي الكويتية وان الكويت بأكملها كانت جزءاً من العراق اقتطعها الاستعمار، وبين من يدّعي ان قسماً من الشريط الحدودي مع جزيرتي وربة وبوبيان هي الأجزاء المغتصبة من العراق. وكانت هذه هي المشكلة الاساسية المستعصية بين البلدين والباقية بلا حلّ وسط الى زمن البعث. ولم تقتصر مشكلة الحدود بين العراق والكويت بل كانت هناك مشاكل مماثلة بين العراق والسعودية والاردن أيضاً.

وبعد نشوب الحرب بين العراق وايران وقفت كل من الدول الثلاث موقفاً ايجابياً لصالح العراق. وكلما ازدادت الحرب لهيباً وكثرت الخسائر العراقية كانت أيدي تلك الدول تدرّ بسخاء الاموال والمساعدات على صدام حسين. ولولا تلك المعونة لكان سقوط صدام أمر حتمي ولهذا كان صدام يرى ملكي السعودية والاردن وأمير الكويت

أولياء نعمة عليه وعلى حزبه ولم يبخل في شكر هذا الفضل والتصريح به كراراً، وكلما مرّ زمان أطول على الحرب كلما ازداد احتياج صدام الى اخوته، فأستغلت كل من السعودية والأردن ضعف موقف صدام وبادرتا في مفاتحة قيادة البعث وصدام بالذات حول مشاكلهما الحدودية، فلم يجد البعث بدّاً من الاستجابة لمطالب الدولتين لأن الرفض يعني قطع المساعدات الحيوية وبالتالي السقوط الحتمي، اذن اشبار من أرض العراق لا تساوي شيئاً مقابل فقدان الحزب السلطة، لذلك بذل صدام حسين بعض الاراضي الحدودية العراقية الغنية بالبترول والفوسفات الى الدولتين ليجزي بالاحسان احسانهما، وبعد أيام قليلة طبعت الخارطة الجديدة للعراق لاعوج فيها ولا أمتا على حدودي المملكتين، واغلقت بذلك ملفات القضايا الحدودية بين العراق والجارتين.

مرّت أيام على المصالحة هذه واذا بأمير الكويت يزور العراق برفقة عدد كبير من الوزراء والشخصيات الكويتية واستقبلهم صدام أحسن استقبال، وعرض الوفد الكويتي فكرة تسوية الخلاف حول الحدود، فماطل صدام في ذلك وطلب من الوفد تأجيل هذه المسألة الى ما بعد الحرب، ودارت مناقشات طويلة بين مسؤلي البلدين لم تسفر عن نتيجة تذكر. وأصرّ الكويتيون على صدام لتلبية مطلبهم لكن صداماً كان يتهرب من الاجابة، ولحراجة موقف صدام واحتياجه الضروري للموقف الكويتي فقد كانت المباحثات رغم عقمها يسودها طابع اللين، فلا صدام يريد اغضاب الكويتيين ولا الكويتيون ييأسون من رضوخ صدام، لضعفه واحتياجه، وبسبب ودّية اللقاء طالت المناقشات ولم يتعد جواب صدام الوعود بمناقشة الموضوع بعد الحرب وكلمات تعبّر عن عمق الاخوة بين الشعبين وان لا حدود بين البلدين وان العراق وطن الكويتيين.

ويبدو ان الرئيس العراقي كان يعبر عن عمق ما في خاطره تجاه الكويت بتلك الكلمات، وفي المقابل حاول الكويتيون استدراج صدام صوب التغاضي عن مطاليب اقليمية بتقديم العون السخي للبعث بوضع الكويت في خدمة القادسية سواء باعطاء الاموال النقدية أو بيع النفط بالنيابة عن العراق، أو السماح لقوات صدام باستخدام الموانئ والجزر والاجواء الكويتية لضرب الجمهورية الاسلامية. وترقب الكويتيون بفارغ الصبر انتهاء القادسية عسى أن يفي صدام بوعده.

وانتهت الحرب وتوجهت الانظار الكويتية الى صدام وحزب البعث المعروف بالطابع القومي والداعي الى الوحدة العربية ومضيف قمة بغداد تلك القمة التي وقف فيها صدام حسين باصرار لاقناع الرؤساء والملوك العرب باضافة بند في بيانها الختامي تنص على حرمة استخدام القوة بين العرب انفسهم مهما بلغت الخلافات، ومن خالف من الدول العربية هذا البند فعلى بقية العرب الوقوف ضد تلك الدولة ومحاربتها!!! فماذا جنت الكويت بعد القادسية؟

أثارت الكويت مسألة الحدود من جديد، وبخلاف ما انتظرت كان جواب البعث الرفض الصريح للطلب، بل ومطالبة الكويت باسترجاع الاراضي العراقية في العبدلي والمطلاع ووربة وبوبيان مما أثار دهشة الكويتيين. لم يكتف البعث بالرد القولي هذه المرّة بل قرن قوله بعمل جدّي خطير حيث أرسل قسماً من جيشه نحو الحدود الكويتية، وعند ذلك شعر الكويتيون بخيبة الامل. وتوجهت السلطة الكويتية نحو الاخوة والاصدقاء طالبة النجدة والعمل على منع صدام حسين من الاعتداء على الاراضي الكويتية، واستجاب الجميع لنداء الاستغاثة وشرعت الاتصالات من جهات عدّة مع بغداد سيما الدول العربية، لكن صداماً أنكر مزاعم الكويت ونفى التهديد المسلح.

ولما سُئل عن سبب تواجد قواته على طول الحدود الكويتية أجاب بأن هذه القطعات هي التي كانت متواجدة في القاطع الجنوبي من الجبهة أيام الحرب وبعد قبول ايران لقرار مجلس الامن ووقف اطلاق النار سحبت هذه القطعات من الجبهة لاغراض التدريب والمناورة وليس ثمّة نية عدوانية وراء هذا التحشّد ولأجل اطمئنان مسؤولي الكويت الحّ الرئيس المصري حسني مبارك على صدام حسين ليتعهد له بعدم استخدام القوّة ضدّ الكويت ويتعهّد الأخير بذلك، كما بذلت المملكة السعودية صاحبة الفضل الاكبر على صدام حسين في قادسيته كل جهودها لاحتواء المسألة.

وبدأت جهودها بدعوة الطرفين للاجتماع في المملكة وبإشراف الملك نفسه ووافق الطرفان على هذا الاقتراح وانتعشت الآمال لساعات معدودات وسارعت الوفود الى المملكة ولا حاجة لذكر تفصيل المحادثات فلقد اعطى تفاصيلها وبدقّة الملك فهد

بن عبد العزيز في عدّة مناسبات أثناء وبعد الحرب العراقية الكويتية. ولم تدم تلك المباحثات طويلاً إذ عبّر البعثيون عن رأيهم في اجتماع السعودية بما ينبئ عن اصرار في أمر لم يدرك الاطراف مغزاه وبدأت الحشود تتجه صوب البصرة من سائر انحاء العراق بكثافة.

كان صدام حسين قد بيّت نية غزو الكويت من قبل لكنه ناور مع الاطراف الوسيطة أيّام التحضيرات لهذه المهمة وبعد ان تمّ كل شيء توكل على الله في منتصف ليلة ظلماء لإرجاع الفرع الى الاصل وضم الجزء الى الكل، وزحف جيشه بأمر مباشر منه ليحسم صبيحتها المشكلة ويضع النقاط على الحروف في مسألة اختلاف الحدود مع دولة الكويت، فلا دولة باسم الكويت بعد اليوم بل هي محافظة الكويت العراقية. لكن هذه المسرحية بدأت بفصل كوميدي مضحك لا بأس بالتعرض له تبياناً لبعض حقائق وصور حزب البعث العربي الاشتراكي.

ان قيادة الحزب لم يعلن في اليوم الاول شيئاً عن جريمة الغزو وكانت القضية بحسب الرواية البعثية كالآتي: **اعلان من مجلس قيادة الثورة** في بغداد صبيحة يوم الغزو جاء فيه أن انقلاباً وقع في دولة الكويت قام به عدد من أبناء العروبة وبتأييد مطلق من شعب الكويت العربي المسلم الشقيق. واضاف: لقد زلزلت الارض زلزالها بقارون الكويت... الخ واستلمت الفئة المؤمنة مقاليد السلطة في البلاد وان حزب البعث العربي الاشتراكي في العراق إذ يهنئ الثوار من الصميم ويبارك لهم خطوتهم الجبّارة يعلن عن وقوفه بكل قوة مع القيادة الجديدة... هذه المضامين كانت تشكل نبأ البعث الذي طرق أسماع العراقيين وشعوب العالم من إذاعة بغداد منذ الساعات الاولى للغزو. والبعث ان كان يريد بذلك تمرير كذبة على شعوب العالم فهو يعلم جيداً أن تصديق ذلك غير ممكن بالنسبة لشعبي العراق والكويت فكلا الشعبين على يقين بما حدث، اما العراقيون فقد دروا بوجهة أبنائهم الذين استضعفهم صدام حسين بل أحاطوا بالغزو علماً قبل وقوعه. وأما الكويتيون فقد عرفوا اللصوص بسيماهم وفي لحن قولهم، فأرتال الآليات العراقية والدبابات التي باتت تجوب مدنهم وجنود صدام الذين أسرفوا فيهم القتل لا يحتاجون معها الى دليل يثبت أن الغزاة بعثيون.

وهكذا ينتهي المشهد الاول باحتلال الكويت تحت غطاء الانقلاب المزعوم ليبدأ المشهد الثاني وهو الاعلان عن القيادة الجديدة في دولة الكويت وتعيين مجلس وزراء، ووزراء والتهاني والتأييد تتبادل بين بغداد وقيادة الكويت الرشيدة واعلان حكومة البعث عن الاستعداد لتقديم العون وتوسيع أفق التعاون الاخوي بين البلدين الشقيقين، ويتبع ذلك دعوة القيادة الكويتية المصطنعة قادة البعث في العراق الى الوحدة الاندماجية بين البلدين ويلبي البعث تلك الدعوة في غضون ساعات وتمت الوحدة بين البلدين في أقلّ من أربع وعشرين ساعة، وقد أعلن عن هذا الاتحاد رسماً وأُفهم علناً.

وتمضي المسرحية في مشاهدها المضحكة في عرض سريع، يغير أجواءها بسرعة صوت الاستنكار العالمي لهذه اللعبة القذرة، فلقد أصبح العالم يوم الغزو بين مصدق ومكذب، ولكن سرعان ما انكشفت الحقيقة إذ أن تشرّد شعب كامل لا يمكن أن يبقى مكتوماً ببوق الكذب فالحقائق التي حملها المشرّدون من أبناء الكويت عن الاوضاع في بلدهم وقعت فوراً في قبضة وكالات الأنباء وما أمست المحطات الاذاعية إلاّ وحديث غزو العراق للكويت في صدر نشراتها الاخبارية وبتفصيل دقيق.

ويستنجد حكام الكويت فجر يوم الغزو با لاصدقاء ولكن دون جدوى فالقوّات الهائله المدججة باحدث الأسلحة سلبت كل فرصة لتقديم النجدة، فيلتجيء مسؤولوا الكويت وعلى راسهم الامير الى المملكة العربية السعودية هرباً من قبضة الغزاة وطلباً لمخرج لهذه الازمة.. ويجتمع مجلس الامن فوراً ليدين العراق صراحة ويقطع الطريق على البعث في توجيه الجريمة بادلّة دامغة لايمكن لصدام انكارها. وهكذا يضطر صدام حسين في رفع الستار عن مسرح الدجل البعثي بعد ان فضحت شمس النهار اثار تلصصه فظهر ليعلن على رؤس الاشهاد دون خجل عن كذب الادعاءات والبيانات البعثية التي صدرت من القيادة والتصريح بان العمل كان من فعله وانه غزا الكويت لانها جزء من العراق اقتطعها الاستعمار منذ زمن ولابد من رجوعه الى الأم، كما اعلن عن ضم الكويت رسميا وانها المحافظة التاسعة عشرة وانه قد عيّن محافظاً لادارة شؤونها.

هكذا انكشفت الاوراق واسفر حزب البعث عن وجهه القبيح واساليبه القذرة في معالجة الامور. والعجيب اصراره على مشروعية فعلته رغم الاستنكار العالمي وادانة مجلس الامن وتهديد الدول العظمى له واستمراره في غيه دون مبالاة ودون التفكير في عواقب الامور وما يمكن ان يجلبه من ويلات على شعب العراق المبتلى الذي كان مازال يئن من القادسية السوداء. ولاءات صدام حسين معروفة مشهورة... أما ماذا جرى على الكويتيين والكويت فذاك ما عاشه شعب الكويت ايام الاحتلال وقد كشف الاعلام جانباً من الجرائم التي ارتكبت بحق هذا الشعب المسكين...

ان تلك الجرائم وان كانت الجزء البسيط من جرائم صدام حسين وحزب البعث الذي نعرفه وحزبه نحن كعراقيين، لكنها كانت كارثة بالنسبة للكويت ولايستطيع شرح دقائقها الا الذين احترقوا بنارها فالذي عندنا من حقائقها لاتتجاوز المفردات التي نقلها بامانة بعض الجنود العراقيين الذين شاهدوا جوانب من الجريمة بأم اعينهم من تلك المشاهد التي تقشعر منها الجلود، فما اقبح حزب البعث وما اقبح فعاله، فالقتل واسر المدنيين وسلب اموال الناس والاعتداء على الاعراض وكل جريمة مخلة هي سمة من سمات هذاالحزب. اما حصة شعب العراق من ملحمة صدام الجديدة هذه ـ والتي يهمنا ذكرها ـ فيمكن توزيعها في وجبتين مختلفتين. سماط ايام الاحتلال وسماط اكبر بعد الرد الدولي وتنازل صدام عن الكويت.

اما الوجبة الاولى فقد اشتملت على:

١ـ سمعة مشوهة للعراق بسبب القبائح التي ارتكبها البعثيون في الكويت.

٢ـ اجبار العراقيين على اكل الحرام بعد توزيع المواد المسروقة من مخازن الكويت. وعرض ما نهبه البعثيون من أموال الشعب الكويتي المسلم في الاسواق العراقية.

٣ـ اشتراك الناس في التظاهر بالرضا من الجريمة بعذر الخوف بداية الغزو وما البسهم ذلك من شعور بالحزن والألم بسبب عذاب الضمير اضافة الى الاحراج الذي واجهوه من سوء فعل القيادة البعثية.

اما الوجبة الثانية: فهي اكثر مرارة ولقد أنست أم المعارك أيام القادسية رغم قلة مدتها، وأذكر هنا بعض نتائجها:

أ ـ تحطيم القوات المسلحة العراقية بعد ان خسرت آلاف الدبابات والمدرعات ومئات الطائرات وتدميرالمطارات ومخازن العتاد والمعسكرات.

ب ـ تدمير شبه كامل للمرافق الاقتصادية ومنها المصانع والمنشآت النفطية والجسور ومراكز الاتصالات ومنشآت توليد الطاقة وغيرها الكثير.

ج ـ أكثرمن مائةالف ضحية اخرى أضيفت الى قائمة خسائر العراق البشرية.

د ـ اهانة الشعب العراقي بما فرض عليه من العزلة الدولية باسم معاقبة صدام.

هـ ـ تدني الحالة المعاشية للعائلة العراقية بشكل خطير جراء الحصار المفروض وابتلاء الشعب بأمراض اجتماعية كثيرة نتجت من الحصار والفقر اضرت بشخصية العراقي.

و ـ عدم تحقيق أي مكسب إقليمي من ذاك الذي كان يدّعيه البعث قبل أم المعارك، بل كانت النتيجة عكسية حيث فقد العراق الكثير من أرضه وموارده في التخطيط الدولي الجديد الذي فرضته الامم المتحدة على صدام.

ز ـ فرض الوصاية الدولية على العراق وإشراب العراقيين كأس العبودية من جديد.

ح ـ هدر أموال الشعب الفعلية والمستقبلية بتعريضها للتدمير وتحميلهم مليارات الدولارات من الديون تعويضاً لخسائر أم المعارك والتي فرض مجلس الامن على العراق دفعها الى الكويت ودول التحالف المتضررة من جرّاء الحرب في الوقت الذي لم يتم فيه بعد تحديد خسائر ايران وفق القرار ٥٩٨ الحاكم بالتعويض بعد تحميل العراق مسؤلية إشعال نار القادسية.

هذه هي بعض أصناف الطعام المسموم التي سطّرها البعث على مائدة أم المعارك وقدّمها وليمة للشعب المسكين الذي بات يتلوّع من مرارة الطعم العفلقي منذ أول يوم عاد فيه الفرع الى الأصل وبمرأى ومسمع من شعوب العالم أجمع. لكن هل كانت هذه الوليمة هي آخر مرارة ذاقها الشعب من يد أبطال التحرير من رفاق الحزب والثورة؟ الجواب في المشهد التالي.

حرب البعث ضد الشعب

الانتفاضة الشعبية عام ١٩٩١م والقمع البعثي

الغريب ان حزب البعث لم ينفك عن الحديث باسم الشعب منذ دخوله العراق والى الآن، وتفسيره كل تقلبات الحزب على اساس مصلحة الشعب والامة. في حين لم يكن نصيب الامة العربية والشعب العراقي من هذا الحزب غير الدمار والخسران. فاي شعب هذا الذي يذرف عليه البعث دموع التماسيح؟ واية امة تلك التي ينوح عليها صدام حسين؟.

ان ملاحظة الاحداث التي رافقت مسير ثورة البعث في العراق تضع النقاط على الحروف في جواب السؤال المتقدم، فالشعب في نظر البعث لايعني اكثر من اعضاء القيادة القطرية والرفاق اعضاء قيادات الفرق والشعب مسؤلي منظمات الحزب في انحاء القطر، الذين رددوا القسم بشرف الحزب ومقدساته في البقاء على العهد البعثي والتفاني من اجله. اما ملايين العراقيين سواهم فهم غوغاء لاتشملهم كلمة الشعب في المنطق البعثي لذا فان سعادة الشعب تعني سعادة اولئك النفر وإن تمّت تلك السعادة على حساب كل شعب العراق. فالرفاق هم كل شي فهم العراق وهم الماضي وهم المستقبل وليس من العجب ان نسمع صدام حسين بعد ان انتفض الشعب العراقي باجمعه عام ١٩٩١ وهو يقول ان هؤلاء الغوغاء يتآمرون على ماضي العراق وحاضره ومستقبله. فالعراق في نظر صدام حسين يتمثل في عصابة البعث ولا عراق من غير البعثيين ولتوضيح هذا المطلب ولبيان عمق الكارثة التي حلّت بالعراقيين بتولي حزب البعث العربي الاشتراكي زمام الامور في العراق لابد من الاشاره الى اهم حدث في تاريخ العراق والذي وقع بعد انتهاء حرب الكويت لنختم بذلك هذا الشطر من مسلسل البعث الاجرامي ولننتظر الايام المقبله لنرى ما يقدمه من ارشيفه من حلقات جديده مكنونة في خزانة اسراره.

لقد انتهت الحرب الكويتية التي اطلق عليها صدام حسين اسم (أم المعارك) وجورج بوش اسم (عاصفة الصحراء) بكيل اكبر من الخسائر والمآسي لتضاف الى بيدر

كوارث حزب البعث في ارض العراق المبتلاة، وبلغ الشعب بنهايتها نهاية اليأس والجزع، فلقد زلزل من جرّاء فعال البعث زلزالاً شديدا ووصل الكبت في صدورهم الغليان اذ طال الصبر على البلاء فبدأت براعم الغيض تقلبهم ذات اليمين والشمال ولذعة الجراح يفصم عرى اللجام لتنطلق الالسنة بالهذيان، ودوّى بذلك لهم ضجيج مزق استار الخوف التي اسدلها البعثيون على النفوس بحد السيف.

وكانت للنهاية المخزية لأم المعارك الدور الكبير في توفير المناخ الملائم للعراقيين المستضعفين ليعبّروا عن رايهم ويقولوا كلمتهم الفصل في حق الحزب الذي طالما استغل ضعفهم في مآربه وسار في مسالك الهالكين تحت غطائه وباسمه زوراً ودجلا ليبيع في سوق الاستعمار الشعب باسم الشعب وينقل خيراته الى جيوب الاجانب تحت شعارات مصلحة الامة والوطن الزائفة كل تلك المدة... .

لقد همهم الشعب المسكين بكل ثقة في افتعال مسألة الكويت من قبل الاستعمار كسائر افاعيله التي نفذها البعث نيابة عنه بعد لمسه نتائج الجرائم القديمة والوهن الذي اصاب قواه جرّاء تحمله اعباء الالاعيب السابقة، فما لشعب العراق واراضي الكويت واموال الكويتيين، اما يكفيه نزف الجراح عن الفكر في جرح جديد. انها كانت ارادة البعث بوحي من عدوٍ للعراقيين ذلك العدو الذي شوق الاردن واليمن ومصر قبل احداث الحرب على التكاتف مع العراق وبايجاد كتلة عربية جديدة تحت عنوان دول التعاون العربي لظاهر المصلحة العربية في حين كان يحمل في باطنه خبث الاستعمار في ضرب العرب بواسطة العرب انفسهم. فهذه الدول الاربع تشكل حزاماً حول شبه الجزيرة العربية بكامل دولها الخليجية ومن طمع في هذه البقعة الغنية بالمواد فلابد له من ان يؤمّن الجبهات المتاخمة التي يمكن ان تكون منفذاً للرقباء وقت الكر على هذا الصيد الدسم فلم تكن الكويت وحدها المقصودة بالغزو بل كانت الخطوة الاولى لجس النبض العالمي بها في طريق المضي قدماً نحو بقية الاهداف...

وثبت بهذا الجس يقضة الرقباء الذين عبروا عن وجودهم في تكتل دولي ضخم كما ثبت ايضاً ضعف اللص الجديد الذي اراد استغلال عصا البعث. وما يدريك من هو؟ فلربما كان احد منافقي الحلفاء انفسهم وقف بوجهه الآخر في الجبهة المضادة

دفعاً للشبهة والاّ فالمتيقن ان القصة لم تكن من تاليف واخراج صدام حسين وحده كما زعموا ذلك، وتلقى العراقيون صفعتهم في هذه اللعبة من جبهة التحالف المضاد تلك الصفعة التي ايقضتهم من سبات طويل حيث لمسو ضياع كل شيء المال والنفس والكرامة.

ومنه ارتفعت الاصوات البريئة فبدأت الصيحة اول الامر من اقرب نقطة للمنطقة الساخنة وهي البصرة حيث هب اهلها الى الشوارع وهم يرون اثار الهزيمة في وجه الجيش البعثي المندحر ويتحسسون عمق الانهيار في نفوس الكتل المدججة بالسلاح ويسمعون عبر وسائل الاعلام العالمية كلمات الذلة والهوان من ممثلي صدام حسين في اجتماعات صفوان والمتمثلة في نعم لكل شيء وما يعني ذلك بالنسبة لشعب العراق وكرامة العراق. فينتهز الناس فرصة الهزيمة هذه للانقضاض على المهزومين في مراكزهم ليستولوا ما استطاعو على اسلحتهم ليتكلموا بها مع حزب البعث الذي اثبت انه لا يجيد الا لغة السلاح، وتمكن الجمهور من السيطرة على مركز المدينة بعد اسقاط اوكار العملاء من المنظمات الحزبية ومراكز الامن والاستخبارات والشرطة والاستحواذ على ما فيها من سلاح وعتاد.

وشاع الخبر بسرعة البرق في انحاء العراق وانتعشت بذلك الآمال في نفوس العراقيين ودخل الرعب واليأس في قلوب البعثيين. وبدأت اذاعات العالم بنشر خبر انتفاضة الناس في البصرة، والعالم بما فيه الاستكبار في ترقب حذر لمجريات الامور والتوقعات باتت اكيدة في حدوث امر هام قد يضع نهاية للحكم البعثي المتسلط على رقاب الشعب العراقي... وبذلك ازداد العراقيون ايماناً بفرصة العمر فرصة الانتفاضة والثورة وسيلة للنجاة من كابوس البعث الرهيب.

لقد بدأت شعلة الغضب الكامنة في نفوس عامة الناس بالاتقاد لتدفع الانسان في لاأبالية مع علمه بما ينتظره من المخاطر نحو ساحة التحدي تلك الساحة التي منعهم من الظهور فيها الخوف الناجم من ارهاب البعث. واتخذت المدن العراقية طبعاً غير مألوف من قبل حيث انطلقت الحناجر بكل إيمان وثقة بقول كلمة الفصل الموت للبعث والموت لصدام ليسقطوا بذلك كل شعارات الزيف التي تظاهر بها

الحزب الحاكم منذ توليه السلطة وبالاخص شعار البيعة المفتعل الذي دأب البعثيون في تحميله على الشعب ليثبتوا بذلك شعبية النظام ومحبوبية القائد الرمز....

ولم يكتف العراقيّون هذه المرّة باطلاق الشعارات بل قرنوا قولهم بفعل بطولي بالهجوم الشعبي الشامل على اوكار العمالة في المدن والقصبات بقلب مطمئن بالنصر ويد خالية من سلاح وقد شاء الله لهم الغلبة بادئ الرأي اذ أدخل في قلوب البعثيين الرعب ليتمكن الجمهور من السيطرة على مراكز قوة السلطة في المحافظات بعد قتلهم جمعاً من رجالات البعث الذين وقفوا في صدورهم دفاعاً عن حزب البعث كما قتل من الناس جمع على يد البعثيين، ولاذ باقي البعثيين بالفرار وقد شملت هذه الثورة اربع عشرة محافظة من محافظات العراق وتحررت الواحدة تلو الاخرى مع كامل اقضيتها ونواحيها في ايام معدودات واصبح الشعب هو السيد فيها دون منازع اذ لم يبق للنظام فيها اثر.

وحاول بعض الجهات التشويش على هذه النهضه بالتشكيك في اصالتها واتهام ايران تارة بأفتعالها وامريكا تارة اخرى ولأجل القاء الضوء على هذا الجانب نطرح بعض الأسئلة ثم نجيب عليها. ترى من كان في الحقيقة وراء ما حدث في العراق؟ فهل امتثل الشعب العراقي لأوامر بوش كما زعم البعض؟ أو كانت الجمهورية الاسلامية الايرانية وراء ذلك كما ادّعى آخرون؟ أم كانت الانتفاضة من اختراع العراقيين انفسهم دون اي تدخّل اجنبي؟

إن الجواب على هذه الأسئلة ـ اضافة الى كونه ضرورة لا مفرّ منها لكل من تطرق في هذا الموضوع ـ مسؤلية يجب ان يتحملها أي عراقي يدّعي الاخلاص لشعبه ووطنه وأي مسلم تعاطف مع قضية هذا الشعب. اذ ليس من السهل الحكم على انتفاضة شعب راحت ضحيتها مئات الألوف من البشر ما لم يكن الحكم مبنياً على اساس ثابت يظهر الحق بجلاء ليكون تبياناً للشعب العراقي ودرساً للشعوب المضطهدة الاخرى.

من اجل ذلك قدّمنا الخوض في تفاصيل الاجابة عن سؤال (من كان وراء الانتفاضة) على بيان الجوانب الاخرى فنقول:

١ـ **اوضاع الشعب قبل الانتفاضة:** ان أحوال الشعب العراقي لم تكن بخافية على أحد طول مدة حكم البعث، فما تلقاه الشعب من سياسات هذا النظام من الخسائر المعنوية والمادّية كانت كافية لزعزعة عقيدة المواطنين بمن فيهم المنتمين الى الحزب بالحزب وقيادته، فالقلوب كانت مليئة حقداً وكراهية، والكبت جرّاء سلطان البعث وقسوته صار من سمات حياة العراقيين، فمن يتجرّأ في انتقاد النظام وما كان مصير الآلاف التي خانها اللسان بكلمة غير الحصاد؟ لذلك كانت البواطن متنفرة والتظاهر بالولاء والتصفيق للنظام واجب لمن اراد البقاء وليس أدل على ذلك من قول صدام حسين المشهور (الذي لا يدخل تحت خيمة الحزب ليس له حق الحياة) وهو بالقطع واليقين يعني ما يقول... لكن باضعاف هذا القدر من التظاهر كانوا يتطلعون الى فرصة النجاة من مأساتهم اذ طالت مدة البلاء فمنذ سنة ١٩٦٣ هم في هذه الحالة المأساوية، وهي مدّة من العذاب كافية لنفاذ صبر أي شعب مهما كان جلداً. فلقد بلغت الآلام حداً تمنّى العراقي معه الموت أو النجاة بأية وسيلة وهذا القدر من المضايقة أزاح جانباً من حاجز الخوف الذي كان مستولياً عليهم قبل ذلك اذ بدأ الناس بالحديث والتظلم واظهار عدم الرضا من السلطة حتى استولى هذا الجو الجديد على مجالسهم ومحافلهم لاسيما أثناء حرب الكويت فما من اثنين الاّ ويدور بينهما الحديث عن مآسي الماضي والحاضر وكيفية الخلاص لكن في الجو الخالي من عيون السلطة. فإذن كانت الارضية الجماهيرية مهيأة تماما لقبول بذرة اي تحول.

٢ـ **تأثير الإعلام المضاد لحكومة البعث في الوسط الجماهيري:** لا ينكر أحد تاثير أصوات المعارضة الداخلية أو الخارجية عبر الإذاعات المختلفة فالناس يستمعون دون شك لإذاعات العالم سيّما لندن ومونتكارلو وصوت أمريكا وإذاعة طهران أملاً في سماع المفرح من الأخبار التي تخص العراق وكانت لتلك الإذاعات الأثر الإيجابي بكشف حقائق كثيرة كانت خافية على شرائح كبيرة من الشعب.

لكنّ هذا التأثير لم يكن أكثر من حصولهم على حجج جديدة ضد الموالين لحزب البعث يحتجون بها اضافة الى ادلتهم وإلاّ فالعراقيون يعلمون جيداً أن أغلب تلك

الابواق كانت مع صدام حسين الى قُبيل غزو الكويت وشهادة أعداء الأمس أكثر نفعاً وتأثيراً من شهادة صديق فها هو عدو الامس يعترف بكثير من تلك الجرائم التي ارتكبها صدام ضد شعبه بتأييد منه في حين رأيناه قد لزم جانب الصمت وقت وقوعها فكان في هذا الاعلام قوّة دفع للمجتمع في السير نحو حقوقه لا أن يكون الأساس في تحريكهم. فالشعب قد بدأ تحرّكه عندما كانت الاذاعات تلك مشغولة بالمدح والثناء على صدام وحزب البعث، متهمة الشعب بالتعنصر والعمالة.

أمّا مطالبة الرئيس الأمريكي جورج بوش من الشعب العراقي التحرك لإسقاط صدام حسين عبر اذاعة صوت امريكا فلم تكن أكثر من مناورة أراد بها أمرين:

- **الاول:** إثبات مركزيته وشخصيته للأمريكيين باستجابة الشعوب لندائه ليستغل ذلك ورقة في كسب الأصوات اللازمة للانتخابات القادمة.
- **الثاني:** تشويه الحركة الشعبية في العراق ليصيد هو في الماء العكر بعد الوقوع.

والاّ فالرئيس الأمريكي جورج بوش كان على علم مسبق بمجريات الأحداث داخل العراق وعلى يقين بوقوع الثورة سواء طالب أم لم يطالب.. وقد أثبتت الأيام هذا النفاق إذ أنّه بعد اطمئنانه بأن الجماهير العراقية تسير بخطىً ثابتة نحو هدفها دون أن تلوح لجورج بوش من قريب أو بعيد كلمة ترحيب أو موضع قدم من الشعب، انقلب على عقبيه بعد إعلان الانتفاضة وسيطرة الشعب على ثلاثة أرباع العراق تقريباً ليحوّل الإعلام الأمريكي على الشعب ولصالح صدام حسين وليمد يد العون الى المجرم ـ الذي اعترف هو بجرائمه ودعى الى الاطاحة به ومحاكمته كمجرم حرب ـ بالسماح له باستخدام القوة بما فيها الطائرات ضد الشعب بل ويضع طائرات التحالف والاقمار الصناعية في خدمته بهداية فلول جيش صدام نحو نقاط الضعف في جبهات الجماهير وهذا ما لا يغفره الشعب العراقي لحكومة أمريكا ما دامت الأيام.

فأين قول من يقول بأن الإنتفاضة كانت بوحي أمريكي من أفعال جورج بوش تلك... نعم أرادت أمريكا استغلال الفرصة دون جدوى من حركة العراقيين فلما أبى

الشعب ذلك عادت لتفضل صدام على الشعب، فمدت يد غدرها مرّة أخرى لتحمّل نفسها وزراً على أوزارها السابقة في حق هذا الشعب المظلوم. وتأكيداً للدور الأمريكي الخبيث نشير لبعض تصرفات بوش مع السير التصاعدي لانتصار الثورة:

أ) ـ عقد اجتماع في صفوان بين ممثلي القيادة العسكرية العراقية وممثلي التحالف أجازوا بموجبه لصدام حسين استخدام الطائرات المروحية شريطة عدم تقربها من قوات التحالف. وبوش يعلم أن طلب صدام السماح له باستخدام المروحيات كان لأجل ضرب الجماهير الشعبية.

ب) ـ فك الحصار عن قوات الحرس الجمهوري المحاصرة بين البصرة والناصرية والحدود السعودية الكويتية لتتجه شمالاً مع كامل اسلحتها دون شروط مسبقة، في حين كانت امريكا قبل ذلك مصرّة على نزع سلاح تلك القوّة المحاصرة كشرط لاخلاء سبيلها. وماكان ذلك الاّ ليساعد دولة البعث في قمع الانتفاضة.

ج) ـ شن حرب نفسية على الشعب عبر إعلامه بإشاعة الاكاذيب عن انتصارات وهمية لجيش صدام وانهيار المقاومة الشعبية مما كان له الأثر الكبير في معنويات الجماهير المنتفضة، إذ ان انقطاع الاتصالات والمواصلات بسبب القصف الامريكي حال بين وصول انباء الانتفاضة وانتشارها فاستعان الناس باجهزة الراديو سيما اذاعات امريكا ولندن ومونتكارلو والتي كانت جميعها تنطق عن لسان بوش بحكم التحالف فاذا بها جميعاً تبث انباءً بعيدة عن الحقيقة تزرع الياس في النفوس.

د) ـ الايحاء الى الاكراد بترك مدنهم بعد اول صِدام لهم مع القوات الحكومية في كركوك ولذا لم نجد من الاكراد اية مقاومة تذكر بعدها بل آثرو الخروج بالملايين صوب ايران وتركيا وكان ذلك من اجل تمكين صدام من استخدام كامل قوّته ضد الانتفاضة في الوسط والجنوب واستغلال هذا الموقف اعلامياً لبث الذعر بين الناس، فقد اعلنت اذاعات التحالف في وقت واحد مساء الانسحاب الكردي ان قوات صدام استطاعت خلال يوم واحد من السيطرة على كامل كردستان العراق ـ الامر الذي لم تتمكن منه تلك القوات عبر العشرات من السنين ـ وكان

لهذا النبأ الأثر السيء على الموقف في وسط وجنوب العراق. هذه بعض مواقف بوش فكيف نوفق بين هذه المواقف وبين الادعاء بأن الانتفاضة كانت بوحي من بوش؟

☚ **الثالث:** ضلوع الجمهورية الاسلامية في المسألة: فهو الآخر بعيد عن الانصاف بالشكل الذي روجوا له ولاشك أن اساس هذه التهمة ناشيء من خطأ التقدير في العلاقة بين مطالبة شيعة العراق حقوقها وحركتها في هذا الاتجاه وبين موقف الجمهورية الاسلامية من حكومة البعث، فقد توهم القائلون بهذا الرأي في أن شيعة العراق وبسبب التوافق المذهبي مع ايران يجدون انفسهم ملزمين في تلقي أوامرهم من القيادة الاسلامية في ايران، وان ما قاموا به هو من محض هذا المنطلق ولمجاورة البلدين والعداء السابق بين البعث وايران فقد انتهزت ايران فرصة ضعف العراق فأوعزت الى الشيعة للقيام ضد السلطة والاطاحة بها. وهذا هو الاختلاق.

صحيح ان الجمهورية الاسلامية تتعاطف مع المسلمين عامة والشيعة خاصة وتتمنى لهم توفيق التحرير من نير الظلم الا ان ظروفها السياسية والاقتصادية في الوقت الراهن لا تسمح لها بالوقوف شريكةً لحركة قوية مثل حركة الشعب في العراق فضلاً من ان تكون اساساً وراءها فآثار الحرب وفرض الحصار الدولي والموقف السلبي للدول منها وتربص الاعداء كأمريكا وغيرها كل تلك عوامل غير مساعدة لإيران في التورّط بمثل قضية العراق بل فسّر العراقيون وغيرهم مسألة غزو الكويت بأنها كانت لعبة لتوريط ايران بها حجة في ضربها وان الاستعمار لم يكن في يوم ما لا قبل الحرب ولا بعدها يكنّ في قلبه شيئاً لصدام حسين رغم الاستنكار الظاهري لعملية غزو الكويت وهل تبقى امريكا التي قتلت الشعب العراقي دفاعاً عن صدام حسين مكتوفة اليد ازاء تدخّل ايران. وهل يمكن أن تورّط ايران نفسها وهي تدرك الموقف الامريكي جيداً..

وربما كان منشأ الظن هو فتح ايران المجال للمضطرين من العراقيين لدخول اراضيها من المعارضين لنظام الحكم والسماح لهم بإيجاد تشكيلات سياسية وربما عسكرية أيّام الحرب العراقية الايرانية كما فعلت العراق نفس الشيء مع المعارضة

الايرانية. لكن الذي وقع في العراق ايام الانتفاضة كان اكبر بكثير من حجم تلك الحركات المتضادة هنا وهناك وقد تكون لبعض تلك الحركات اصابع في القضية الاّ انها لم تتعدّ المشاركة المتواضعة التي لم تفلح في استغلال الهيجان الشعبي في السباق لكسب قاعدة أوسع في الساحة العراقية. ولعمري انها تراجعت أول الطريق، بعد أن مسّتهم شرارة من نار الكر والفرّ ولربما ارغموا على الانسحاب بعوامل اخرى اذ ليس الظن بالمجاهدين انهم تحرّفوا عن القتال من غير سبب.

ثم ان ظاهر الموقف الايراني أيام الانتفاضة كان لصالح صدام والحكومة البعثية، فعندما اعلنت امريكا الحصار على العراق انقطعت سبل الامداد وشحّت المواد سيما الغذائية، وبدأ مفعول الجوع يترك اثره في كافة الطبقات فاتحدت بذلك الاصوات الاعتراضية على الحزب الحاكم وكاد دوي الصوت المتحد ان يزلزل عرش الطاغية في بغداد، وفجأة بدأت المواد الغذائية تنحدر نحو العراق من الحدود الايرانية ـ واني وإن كنت على يقين من حسن نية ايران في هذا التصرف وأخذها حال المسلمين بنظر الاعتبار لتخفف عنهم آلام الجوع المفروض عليهم من جراء جريمة يرتكبها حزب البعث الا ان الواقع يجب ان يقال ـ فان هذا التصرف مع ما فيه من حسن النية الا انه كان له الاثر السلبي في موقف الانتفاضة.

إنّ المواد الضرورية التي دخلت العراق كانت تقع في يد البعثيين لتباع بعشرات أضعاف سعرها الواقعي فلم يتمكن من شرائها الاّ الاغنياء، وهم من بعد شبعهم انسحبوا من الساحة ولزموا الصمت ليبقى صوت الفقراء وحده وهو غير كاف في تحقيق هدف كبير مثل هدف الانتفاضة. وكانت سلبية التصرف من هذه الناحية، اذ ان مضايقة السلطة المتزلزلة كانت اكثر اهمية من اشباع البطون الجائعة، واغلب الاغنياء اذ نزلوا في ساحة الانتفاضة ليلعنوا صدام وحزب البعث مع الناس انما اجبرتهم شحة المواد الغذائية التي لم يتعودوا على تحمّل فراقها، فلما توفّرت في السوق لم يحل الغلاء بينهم وبين التملي منها، فاشتروا الكفاف وعادوا الى منازلهم ولزموا الصمت بعد ان لانت حناجرهم وهل ينبغي القول بعد هذا بأن ايران كانت اساساً وراء الانتفاضة.

☚ **الرابع**: ضعف القيادة بل وفقدانها: وبقاء الجماهير المستولية على المحافظات

مدة اسبوعين دون تكليف، خير دليل على شعبية الحركة، فلو كانت المسألة من تدبير خارجي أو حزب داخلي معين لاستغلت الموقف خير استغلال ولانتصرت حتماً لتوفر مستلزمات النصر ولما كانت للانتكاسة مجال بعد الانهيار التام للسلطة والجيش، ولا انكر بهذا تدخل بعض الاحزاب المعارضة في هذا الصراع الوسيع بل ربما كانت الجدحة الاولى من زنادهم فقد تمكنوا من سوق الجماهير المتضررة صوب المراكز البعثية الا انهم مع الاسف لم يكملوا رسالتهم اما لضعف قياداتهم واما انهم كانوا طلاب عافية اكتفوا بزج الشعب في ساحة القتال أملاً في ان يعبّد الشعب لهم طريق السلطة.

لقد توقعت الجماهير العراقية وخصوصاً الشيعة المظلومة من قيادات المعارضة الموجودة خارج العراق دخول الساحة واستلام المهام لاكمال المسيرة لكنها كانت محض توقعات وامنيات انتهت باليأس والاحباط، وقد اكتفت قيادة المجلس الاعلى بادخال البعض القليل من قواتها لكنها سرعان ما انسحبت واختفت ولم يتضح سر تلك المناورة في الوقت الذي كان من الواجب على جميع دعاة حماية الشعب من الدخول في الساحة بعد أن ورّطوا الجماهير في حرب شاملة لامخرج منها الا بالنصر لأن الهزيمة فيها تعني عبودية الشعب.

ولم يبخل الشعب بشيء في هذا الصراع وقدّم عشرات الالوف خلال اسبوعين من القتال الشرس، لم ينقص الشعب في هذا الصراع الاّ قيادة منظمة توجه الطاقات الهائلة لاحراز النصر، وفشل الحركة دليل على عدم التنظيم والتوجيه اذ انتهت بأسر الشعب من جديد ويأس طلاب السلطة من بلوغ مناهم بضياع الفرصة، فعاد كل منهم الى مقر عمله الدائم تاركاً العراق لصدام حسين، والعراقيين للاقدار حيث تلعب بهم عاصفة الانكسار في الداخل والخارج.

اذن لا ايران كانت وراء النهضة ولا الحركات المنظمة المتواجدة خارج العراق، بل كانت ثورة غضب وكبت في النفوس وجدت الارضية للبروز يوم فشل صدام في أم المعارك وقد حاول بعض بتخطيط عقيم اشعال فتيل الغضب هذا ليجني ثمر جهود الجماهير من غير ان يخسر شيئاً غير عودة الكبريت التي اشعل بها الفتنة، لهذا كان

عدم التنظيم واضحاً في مسيرة الثائرين وشرع كل منهم يعمل على شاكلته في التعبير عن مقته للحزب وعمت الفوضى فلا هي استطاعت بعد تفريغ صدرها ادارة نفسها ولا سارعت دولة أو حركة معارضة لنجدتها بجد. لهذا تمكن صدام ببقية قوة هزيلة ان يكرّ خطوة خطوة على معاقل الجماهير لينزع منها النصر الذي تحقق أو كان في طريق التحقيق.

وجدير بالذكر ان الحركة لم تكن مختصة بالشيعة وحدها بل اشترك فيها الشيعي والسني والعربي والكردي فمن الظلم اتهامها بالطائفية المذهبية كما سعى البعض في تصويرها كذلك تأييداً لصدام لمصلحة سياسية أو مادّية. ولا بأس هنا ان نتعرض باختصار الى الأحداث التي رافقت الانتفاضة لتقييم جوانبها المختلفة على ضوء مشاهدها في عمرها القصير.

لقد بدأت المحافظات بالتحرّك الواحدة تلو الاخرى، بصولة الناس على مرافق الدولة ومراكز القوّة، من قبيل معسكرات الجيش، ومراكز الشرطة، والمنظمات الحزبية، ودوائر الأمن والاستخبارات مستخدمين بعض الاسلحة الخفيفة التي استولوا عليها اثناء المظاهرات التمهيدية من افراد الشرطة والامن المتواجدين في الساحة، أو من مراكز الشرطة القريبة التي لم تبد مقاومة حين هجوم المتظاهرين عليها، وكان للانهيار العام في هيكل السلطة والحزب الدور المساعد في سرعة حركة الجماهير نحو المراكز الحساسة في المدن وما حولها.

ولقد لاقت الجماهير مقاومة من بعض البعثيين المتحصنين في تلك المراكز على تفاوت بين المدن، وببطولة مشهوده وتضحيات، تمكن اهالي كل مدينة من اخماد نار البعثيين والسيطرة الكاملة على الموقف داخل المدن ومن ثمّ التوجه الى المعسكرات القريبه لغرض الاستيلاء على ما فيها من سلاح وعتاد، وفعلاً تم ذلك بسرعة بعد استسلام الجنود، ولم تكد ترى في محافظات كثيرة بكامل اقضيتها ونواحيها اي اثرٍ للسلطة الحاكمة.

ووقع سلاح كثير بيد الشعب كما تم الاستيلاء على مخازن ضخمة للعتاد منها مجموعة مخازن النجف التي كانت تضم اكثر من مائة مخزن، لم تدمّر منها قوات

التحالف بعد شهر من القصف الجوّي الا عددا قليلا فقط، اما الباقيات فقد كانت سالمة ومليئة بأنواع الاعتدة. وان القوى الشعبية ورغم الحاجة الماسة للعتاد لم تتمكن من الاستفادة من تلك المخازن الا اليسير بسبب انعدام القيادة والتنظيم.

حصل هذا التقدم بفضل الاندفاع المتحمس للشعب لغرض الخلاص، لكن هذا الحماس سرعان ما تضاءل بعد ان تصور الناس زوال الكابوس الذي اسهدهم عمراً وبعد ان ذاقوا طعم الحرّية في الايام الاولى، ظناً منهم بانتهاء كل شئ، كما ان السقوط السريع لمراكز الدولة في المحافظات اوهمتهم بان العاصمة والمدن الغربية ستحذو حذوها، لذا لم تر من يسأل عما حدث أو يحدث خارج منطقته الاّ القليل ممن انحاز الى فئة للقتال في جبهة اخرى ودون مراعاة الجوانب الفنية والعسكرية.

ان هذا الاعتقاد الواهي هو عامل من العوامل التي جرّت الناس نحو التقاعس عن مواصلة الزحف نحو مركز السلطة في بغداد، رغم ان بغداد كانت على استعداد للالتحاق بركب المحافظات، وهل ينكر أحد تظاهرة مدينة الثورة والبياع وما قدم الناس فيها من ضحايا؟ ولكن هذه الحركات لم يكتب لها النجاح اذ سرعان ما تدخلت القوات البعثية الخاصة وقمعت المتظاهرين وبقسوة وباءت الجهود بالفشل وكان وراء فشلها اسباب:

- **الاول:** خلو بغداد نسبياً من السكان بعد هرب اهلها من القصف الجوي للتحالف الى اماكن بعيدة.
- **الثاني:** تمركز القوة البعثية في بغداد لكونها مركز السلطة والقيادة.
- **الثالث:** كون الجماهير المتظاهرة مجردة من السلاح.
- **الرابع:** الدور الاعلامي الخبيث للدول الاستعمارية في اخفاء انتصارات الجماهير في المحافظات الاخرى بل ادعاء قمعها من قبل صدام مما ادّى الى ترديد الناس في حقيقة الاحداث، سيما والاتصالات شبه مقطوعة بين محافظات القطر والعاصمة.

هذا اضافة الى اهمال ثوار المحافظات لمسالة مواصلة الزحف نحو المناطق الغير

المحررة. هذه المسألة التي كانت تعطي الدفع الاكيد لحركة الانتفاضة داخل بغداد. وهو دليل آخر على عدم التنظيم وفقدان القيادة اثباتاً لبراءة الحركة. وتجدر الاشارة هنا الى جانبين مهمّين احاطا بالانتفاضة ادّيا الى ضعفها واخيراً انهيارها وهما:

☚ الاول: ظروف الانتفاضة.

فقد بدأت الانتفاضة في اكثر الايام شدة على العراق والحصار الاقتصادي الذي فرضته دول التحالف قد خلف وراءه ايّاماً عجافاً، وكان الناس في حيرة من امر المعاش وقوت العوائل فكل المواد الضرورية مفقودة، واذا وجد شيئ منها فسعره المرتفع يحول دون شرائه والفقراء خاصة تحملوا الثقل الاكبر من الحرج. والقصف الجوي لطائرات التحالف خلف هو الآخر كماً كبيراً من المعوقات امام الحياة العادية في البلاد فالجسور مدمرة، ومحطات توليد الطاقة المحطمة البست العراق سواد الظلام، ومشاريع تصفية المياه باتت مشلولة، وفقدان الوقود حال دون حركة الناس، وقطع الاتصالات جعلت من كل مدينة دولة مستقلة عن بقية العراق، وفقدان الادوية من الصيدليات وتعطيل المستشفيات وتفشي الامراض، كل هذه الامور اجتمعت دفعة واحدة مع نهاية حرب الكويت وبداية الانتفاضة واغلبها كانت عوامل معوقة لحركة الجماهير واتصالاتها مع كونها مشجعة لهم في استغلال الشلل الناجم من جرّائها في زعزعة اركان النظام، فضررها كان كامناً في صعوبة الانتقال والاتصال فلا يعلم من في هذه الجبهة ماذا يجري في الجبهة الاخرى الأبعد فترة ويتحير الناس في نقل القوة والمدد الى الجبهات المحتاجة لها ومعلوم كم هو تأثير مثل هذه الظروف السلبية من حيث الحركة وقوة الدفع والصمود.

☚ الثاني: سلبيات الانتفاضة

رافقت حركة الناس سلبيات كثيرة، كانت السبب الرئيسي في انهيارها نذكر اهمها:

١ـ ضعف بل انعدام القيادة: لم تكن للانتفاضة منذ بدايتها قيادة مركزية معلومة فباشعال الفتيل سرت رائحة الثورة في انحاء العراق وتصدر ذوو الحماس من ابناء المدن والقصبات في حث الجماهير المنتظرة بفارغ الصبر لمثل هذه الفرصة

على الخروج الى الشارع، ليؤدي كل دوره في هذه القضية الهامة، وخرج عامة الناس رجالاً ونساءً كباراً وصغاراً عدى قلة من المنافقين ممن لاهم لهم الاّ طلب العافية... واثمرت الجهود وطهر شطر كبير من البلاد من وجود البعث، لكن ماذا بعد هذا الانتصار المبكر؟... لا شيء فقد ابتلى اهل كل مدينة بهمّ انفسهم وتشكّلت قيادات ميدانية غير كفوءة غالباً في كل مدينة، انشغلت بامور جانبية بدل المسارعة في البحث والاتصال بالقيادات في المناطق الاخرى من اجل توحيد صفوفها وايجاد المخرج وتأسيس قيادة مركزية، ليتلقى الجميع الاوامر والارشادات منها، وظلت هذه القيادات الفرعية على استقلالها فلا تعلم احدها ماذا يجري للاخرى وبسبب هذه الاستقلالية باتت الانتفاضة تراوح مكانها فالجبهة الضعيفة بقت على ضعفها والجبهة القوية احتفضت بقوتها في مواضعها دون ان نجد اي مساعي للتنسيق وتوزيع القوى للدفاع عن المناطق المحررة على اقل تقدير. وبقت الحالة في مثل هذا الجمود حتى شن صدام حسين هجومه المضاد على محافظتي كربلاء والحلة في الغرب والبصرة والعمارة في الجنوب وكان قد فات الاوان لتدارك الوضع.

ان النقص القيادي كان في الواقع هو الاساس في الانتكاسة، رغم ادعاءات بالتصدي لامرها بنجاح، والقاء المدّعين اللوم على الجماهير تارة وعلى الاستكبار اخرى، فالاحداث تحكي غير ذلك اذ ان هدر الطاقات وعدم تنسيق المواقف وتحير القيادات الميدانية والفوضى التي طغت على الساحة كل تلك تؤكد غياب القيادة.

٢ـ تباطئ النجف (مركز القيادة الشيعية) في جهودها رغم الموقف الايجابي للمجاهدين من العلماء، بعدم استغلال الشخصيات الثورية الكفوءة والبحث عنها لزجها في ساحة المواجهة واخضاع الخطوط الفرعية تحت سلطاتها لتوجيهها التوجيه الصحيح فقد بدأت النجف بتشكيل نواة قيادة بعد فوات الاوان وقد انشغلت بامور ثانوية وفي حدود مدينة النجف في ظل احتواش

الجمهور لها، ولم تبادر في الفعاليات الاساسية التي كانت من اولويات مهامها في الوقت الذي كانت المحافظات الاخرى تتطلع الى النجف باعتبارها مركز المرجعية العليا، بارسال ممثلين من العلماء محملين بالتوجيهات الاساسية لاستغلال الطاقات الضخمة من المتطوعين وتعبئتها بالشكل الافضل اما لمواصلة الهجوم أو الدفاع. فالظرف كان بحاجة الى سرعة في الحركة ودقة في العمل للحيلولة دون تمكن صدام من جمع فلوله ولايتأتى ذلك من انتظار الهجوم المقابل.

٣ـ تحكّم الفوضى ودخول عناصر لامسؤولة في الساحة بسبب انعدام السلطة مما مهد لارتكاب اعمال تخريبية من قبيل حرق السجلات المتعلقة بالناس في دوائر النفوس والجنسية والتجانيد وغيرها ونهب المخازن ومحتويات الدوائر والمعامل التابعة لمؤسسات الدولة دون رادع وحرق المباني والسيارات واعتداءات شخصية وغيرها من الاعمال التي اصبحت طعماً لإعلام صدام حسين ضد الانتفاضة بتشهيرها ووصفها بالغوغائية والتخريب علاوة على التأثير السلبي لتلك الاعمال على موقف الاغلبية الشعبية التي باتت متفرجة ازاء اعمال التخريب هذه لضعف الشعور بالمسؤولية وانعدام وحدة الكلمة ليضاف بذلك عامل ضعف آخر لاساس الحركة. ولايستبعد ان يكون التخريب ذاك من فعل عناصر المخابرات التي زجها صدام حسين في صفوف الجماهير ليستغل تأثيرها السلبي.

٤ـ فقدان الارتباط بين حركة الاكراد في الشمال وحركة الشيعة في الجنوب وهما القوتان الرئيستان في الانتفاضة والذي سبب تشتيت الجهود وتضعيف قوة المنتفضين. وتفضيل الاكراد تخلية المدن والانسحاب الى ايران وتركيا على مقاومة السلطة مما مهد لحكومة البعث في تجميع كامل فلوله للهجوم على المحافظات الجنوبية.

٥ـ تردد المرجعية الدينية في التدخل المباشر في الساحة باصدار فتاوي قاطعة وارسال ممثلين الى المدن لجمع القوة والكلمة منذ اول ايام الانتفاضة فقد اكتفت

باصدار بعض البيانات تحث عموماً على وحدة الكلمة والمحافظة على الممتلكات على انها ملك الشعب ودفن الجثث في حين كان الناس ينتظرون حكم الجهاد ضد حكومة البعث. فاصدار ذلك الحكم صريحاً كان ضرورة لحسم الموقف لصالح الجماهير.

وقد حامت الشكوك حول البيانات التي صدرت على ان مراجع الدين غير راضين عن القضية وانما نهوا الناس عن ارتكاب المنكرات بعد وقوعها وان البيانات الصادرة لم تكن بعلم من العلماء وانما افتعلها بعض الحواشي بدعم من المقرّبين. كما ان المضامين الغير الصريحة، والجهد الاعلامي المضاد في اثبات افتعال البيانات عمقت تلك الشكوك. واخيراً الاسئلة التي وجهها صدام حسين لاحد المراجع العظام بعد اعتقاله واقتياده الى بغداد، تلك الاسئلة التي تنحصر اجوبتها في النفي، ليستغل صدام تلك اللاءات وليعلن شخصياً ان ما وقع كان بخلاف علم العلماء، وها سمعتم ورأيتم عبر الراديو والتلفزيون الانكار الرسمي من قبل المرجع نفسه وهكذا انسحبت الغالبية من الجماهير الثائرة بعد ان اقتنع العديد من المتدينين واهل الوجاهة من الذين كانوا يديرون الحركات الشعبية بأنهم وقعوا ضحية مؤامرة فاعتزلوا وجرّو وراءهم الكثير الكثير من الناس وكان هذا سبب آخر من الاسباب التي ادّت الى ضعف الحركة.

٦ـ تسلل عناصر الاستخبارات في صفوف الجماهير بسبب الفوضى وفقدان الضوابط ونقل صور حقيقية عن الاوضاع ونقاط الضعف الى قياداتها بالتنكر في زي المجاهدين ومشاركتهم في عملياتهم.

هذه بعض السلبيات التي كانت بمثابة السم القاتل في جسم الانتفاضة دون ان تتمكن جهة ما من ايجاد العلاج الشافي لها قبل ان يسري مفعولها الذي ادى الى الانهيار والشك في جدوى مواجهة قوات العدو المنهارة وضاع بذلك النصر الذي كان منهم قاب قوسين.

الهجوم البعثي المضاد ومعارك الدفاع:

رأى صدام حسين حراجة موقفه وموقف حزبه، وشعر بزوال كرسيه على يد الشعب الثائر وهو المعروف بحبه اللامحدود لكرسي الحكم واستعداده لبيع العراق أو تدمير شعبه مقابل بقائه في الحكم وها هو كابوس الانتفاضة قد تمثل صوراً مرعبة في اركان قصره واحتماله تقدم الناس صوب بغداد بعد اجتياحهم خطوط البعث الدفاعية في انحاء العراق اخذ يهز عرشه المتزلزل. فلا مفرمن اتخاذ القرار ويتمثل القرار في امرين لاثالث لهما الاول التنحي والفرار، الثاني المقاومة وتدمير الشعب.

اما الامر الاول فهو بعيد عن صدام حسين الذي باع العراق بالامس ارضاً وشعباً مقابل البقاء واما الثاني فهو له اهل لذلك اتخذ القرار المناسب بعد الاستئذان من السادة الجدد الذين طوقوه بقيد العبودية في صفوان بعد الاستسلام وشواهد الاستئذان موجودة. فصدام حين شعر بالموت استغاث بالسادة الذين عرفوا جيدا عمق الانتفاضة وميولها فلم يترددوا في الاستجابة لاستغاثته ولاجله عقد آخر الاجتماعات في صفوان ذلك الاجتماع الذي تمخض عن عدة قرارات لصالح صدام حسين وحزب البعث وقد اشرنا الى بعض البنود منها ضمن مواضيع مر البحث عنها.

استغل العدو البعثي تباطئ حركة الانتفاضة حيث توقف الاكراد في حدود كردستان وتوقفت الشيعة في حدود محافظاتها فاتيحت بذلك الفرصة لصدام حسين لقمع الطلائع الجهادية في بغداد اولاً ثم السعي في جمع فلول الجيش المهزوم وبقايا الفرق الخاصة بحمايته وحماية اركان حزبه من الحرس الجمهوري اضافة الى استنجاده بعشيرته واقربائه في محافظتي صلاح الدين والانبار وبالبعثيين والطائفة اليزيدية في الموصل واعلان النفير في القيادات البعثية في مسعىً اخير لانقاذ حزب البعث من موت محتم.

وقد استدعي لمعركة المصير هذه القيادة القطرية لحزب البعث ليستلم كل عضو جبهة محافظة في قيادة القوات المختلطة. كما انحازت قوات التحالف لصالحه بالسماح لقوات الحرس الجمهوري التي كانت محاصرة من قبلها بالتوجه حيث شاءت

قيادتها فتوجهت صوب البصرة والعمارة لتحرق الارض والانسان كما ارسل البعث بعض القوات نحو الشمال وبعضها الآخر صوب الوسط كربلاء والحلة. فبدأت معارك البصرة والعمارة في الجنوب ومعركة كركوك في الشمال.

والغريب ان معركة كركوك حسمت لصالح الجيش في زمن قياسي وبعدها ترك الكورد طوعاً بقية المدن الشمالية، السليمانية واربيل ودهوك وزاخو وتوابعها ولا احد كان يعلم حينها الاسباب الواقعية وراء هذا الانسحاب. فترك الاكراد مدنهم مع تحصيناتها وتضاريسها شيئ غريب ولا شك انهم فعلو ذلك بتشويق من دول التحالف. وما كان التحالف يبغي من وراء ذلك غير مساعدة حكومة البعث وتمثل عونهم في امرين:

- **الاول:** اتاحة الفرصة لصدام حسين لاستخدام كل ما تبقى من جيشه ضد الشيعة والحيلولة دون تشتت تلك القوة بين الشمال والجنوب.
- **الثاني:** استغلال عملية هروب الاكراد كحرب نفسية ضد الشيعة عبر وسائل اعلامها. فقد اعلنت اذاعات تلك الدول ليلة انسحاب الاكراد عبارات كالآتي (تمكنت القوات الموالية لصدام حسين من استعادة جميع المدن الكردية في شمال العراق خلال يوم واحد، وبدأت بالاتجاه جنوباً لقمع حركة الشيعة في الوسط والجنوب) وامثال هذه العبارات، ومعلوم مدى تأثير الانباء المفتعلة في معنوية الشعب، فقد بدأ الناس يتساءلون كيف تمكنت قوات صدام حسين من استعادة المدن الشمالية من يد الاكراد بين عشية وضحاها ومواقف منطقة كردستان ورجالها الاشداء المدججين بالسلاح عبر عشرات السنين غير خافية على احد.

وباتت التكهنات تذهب بالناس ذات اليمين وذات الشمال ـ سيما مع اتفاق الاذاعات العالمية وتأكيدها على صحة الانباء الواردة من شمال العراق ـ بين قائل بأن صداماً قد استخدم الاسلحة الكيميائية في عملياته ضد الاكراد وانه سيستخدمها ايضاً ضد الشيعة لا محالة، فبدأ الرعب من السلاح الكيمياوي يدب في النفوس. وبين قائل بتدخل قوات التحالف لصالحه بشكل أو بآخر لأن الوضع العسكري آنذاك لم يكن مساعداً للقيام بعمليات واسعة في منطقة صعبة مثل كردستان. وفئة ثالثة بدأت

بمقايسة القوى والشك في جدوى الاستمرار بعد سماعها انباء انتصارات الحكومة في الشمال قائلة اذا كانت المدن الشمالية بحصونها الجبلية لم تصمد امام جيش صدام فما الذي نفعله نحن في هذا العراء وما عساه ان يفعل بنا؟ وكانت هذه اللعبة القذرة اشد وقعاً في النفوس من صواريخ صدام وطائراته.

وهكذا تعاون السيد والعبد على اكراه الشعب لقبول احد الامرين الموت أو الاستسلام، وأبى كرامة العراقي اختيار الذلة فقرر الصمود بوجه الظلم رغم تشتته وقلة ناصره وافتقاره للقيادة، وهكذا واجه الايمان كله الكفر كله في وسط وجنوب العراق.

فقد أوقف الكورد انتفاضتهم بعد معركة كركوك وانسحبوا من كامل كردستان الى ان تمكن البعث من اخماد حركة الشيعة، حينها صال الكورد من جديد على قوات الحكومة في كوردستان واستولوا على قسم كبير من المنطقة والتي ما زالت خاضعة لادارتهم ودون مقاومة كبيرة من الجيش الذي آثر الانسحاب الى كركوك والتجحفل هناك دون نيّة في الكر من جديد على المنطقة بعد تدخل الامم المتحدة لصالح الاكراد ورسم حدود لقوات البعث لا يسمح لها تجاوزها.

وسأذكر هنا جانباً من الصراع الذي دار في الوسط الغربي اذ كنت شاهد عيان لكثير من الاحداث هناك، فلقد ضرب الشعب بوقوفه اروع مثال في الصمود مكبداً العدو خسائر فادحة في الارواح والمعدات، وحال المجاهدون بين الجيش وتحقيق هدفه الذي هو احتلال المدن واخضاعها مرّة اخرى لسلطة الاستعمار الذي يمثله الحزب الحاكم رغم كثرة دباباته ومدرعاته. ولما رأى صدام حسين عدم جدوى المواجهة العسكرية لكثرة عدد المجاهدين وكثرة اسلحتهم المضادة للدروع والاشخاص واستحالة خرق خطوط الدفاع لدخول المدن سعى بفعل دنئ في ضعضعة معنويات المقاتلين المدافعين حيث امر قواته باستخدام المدفعية البعيدة والصواريخ في ضرب مراكز المدن والقصبات بصورة عشوائية ومكثفة لينشغل قسم كبير من القوات الشعبية بامر عوائلها وامر تخلية المدن....

وبدأت عشرات المدافع بالقصف الشديد والمستمر على مدينتي كربلاء والحله من معسكر المحاويل مما ادى الى استشهاد الآلاف من النساء والأطفال اضافة الى عدد

من المجاهدين وفي نفس الوقت بدأت السمتيات المدرعة بمساندة ارتال الدبابات والمدرعات بضرب مفارز وكمائن المجاهدين خارج المدينتين مما كان له الاثر الواضح في الموقف، فالقوات الشعبية لم يتسن لها حفر مواضع أو اتخاذ خطوط عسكرية دفاعية لمكان الفوضى وفقدان القيادة. وعدم توفر المضادات الجوية الفعالة في تلك الجبهات سهلت على الطائرات السمتيه عملياتها التمشيطية..

ومع هذا الضعف فقد تمكنت المقاومة من الوقوف بوجه قوات الطاغية قرابة اسبوع بين كر وفر والمدفعية طيلة هذه المدّة لم تقطع نيرانها عن المدينتين وقد تكبد الجيش في هذه المعارك المئات من القتلى والجرحى. والذي تحمل الضرر البليغ في هذه المعارك هم المدنيون من النساء والاطفال والشيوخ حيث اضطر الناس الى ترك منازلهم، واصبحت المدينتان شبه خاليتين، عدى ثلة من المتحصنين في منازلهم والمقاتلين الذين ابلوا البلاء الحسن في مواجهة الجيش..

وينتهز المنافقون فرصة اقتراب الجيش من المدينتين لاظهار الولاء لحزب البعث فشهروا اسلحتهم ليطعنوا بها اخوتهم من الظهر. هذا الغدر الذي اربك صفوف المقاتلين الملتحمين في قتال شرس مع الجيش عند ضواحي كربلاء والحلة. وكان لهذا الموقف المخزي من بعض العشائر الدور الكبير في منح الفرصة للقوات البعثية للاندفاع بسهولة وتطويق المدينتين فاما الحلة فقد طوقت بالكامل من قبل جيش صدام بعد سيطرته على الطرق الخارجية المحيطة بها واما كربلاء فقد حوصرت من جهات ثلاث وبقيت جهة طويريج مفتوحة بفضل صمود العشائر.

كنت آنذاك متواجداً غربي الفرات والتقيت ببعض قياديي الحلة الذين تمكنوا من خرق الحصار والوصول الى ناحية الحيدرية لطلب النجدة من العشائر فشرحوا جانباً من الوضع في المدينة وخطورة الموقف هناك، فاخبرتهم بعدم جدوى الانتظار هنا بأمل تجميع قوة تكفي لعلاج الموقف هناك وحثثتهم على الذهاب الى النجف الاشرف وارسلت معهم احد ابنائي في رسالة مستعجلة معرِّفاً ومقترحاً تدارك الوضع في الحلة بارسال قوات، كما اقترحت فيها على القيادة العسكرية في النجف بالاسراع في حل مسألة جسر الكفل ذلك الجسر الوحيد في المنطقة الذي سلم نوعاً ما من قصف

التحالف والذي توقعنا عبور الجيش منه نحو النجف بعد حصار الحلة، اما بنسفه واما بإرسال قوة كافية لحمايته إذ لا مفرَّ للجيش القادم من جهة الحلة من استخدام هذا الجسر، مؤكداً للقيادة المذكورة عدم قدرة مقاتلي الكفل والعشائر على انجاز هذه المهمة من غير اسناد من النجف فحماية الجسر تتطلب خبرة عسكرية واسلحة كافية تقابل بها قوَّة نظامية مدرَّبة وهي متوفرة في النجف.

وقد ظهر بعد ذلك ان قيادة النجف كانت هي الاخرى مرتبكة وقد ركَّزت جلَّ نشاطاتها بامداد كربلاء، واكتفت بارسال قوة من المشاة تمكنت من ازاحة القوة المتواجدة غرب الحلة وفتحت ثغرة نحو المدينة ولكن المؤسف هو ان هذه القوة لم تسند بمدد لتتمكن من طرد القوات النظامية من اطراف المدينة فلم يمض طويلاً حتى تمكن الجيش مرَّة اخرى من تطويق المنطقة والتوجه صوب الكفل والسيطرة عليها وعلى الجسر المذكور بعد معارك طاحنة بين المجاهدين من اهالي الكفل والضواحي المسلحين بالاسلحة الخفيفة وبين قوات الجيش المؤلفة من ارتال الدبابات والمدرعات والمسنودة بأربع طائرات هليكوبتر....

وكانت نتائج هذه المعركة كارثة بالنسبة للنجف الاشرف مركز القيادة حيث تمكن العدو من نقل كتيبة دبابات وعدة بطريات مدفعية وعدد كبير من المشاة نحو الجهة الثانية من الفرات حيث الطريق الرئيسي الذي يربط كربلاء بالنجف وبذلك عزلت المحافظات الثلاث بعضها عن بعض.

اما الحلة، فبعد ان احكم الجيش حصاره عليها بدأ بتضييق الحصار وتشديد القصف المدفعي المركّز على المدينة، والزحف نحوها حتى تمكن من دخولها ليبدأ بعملية ابادة جماعية استهدفت المتبقين داخل المدينة ممن لم يتمكن من الفرار، وبدأ بنسف المساجد والحسينيات وقتل من دب من غير تمييز، وقد نقل لي بعض الثقاة من اطباء الحلة من العاملين في المستشفى الجمهوري ان المستشفى كانت مليئة بالجرحى من القوات الشعبية حينما دخلها الجيش فسحبوا المجروحين الى حديقة المستشفى وقتلوهم جميعاً وهم بالمئات وقد كاد القتل ان يشمل الاطباء ايضاً.

اما جبهة كربلاء فرغم الصمود المنقطع النظير للمدافعين عنها من ابناء كربلاء

والعشائر المحيطة وقوات الدعم القادمة من النجف، فقد تمكن الجيش من الزحف عليها من جبهات ثلاث، وكان لكثافة القصف المدفعي وغدر المنافقين من الداخل الاثر السلبي الكبير على المدافعين عن المدينة، كما كان لمحاولة قوات البعث نشر الرعب في صفوفهم بالقاء مناشير بواسطة الهليكوبترات تحذرهم من المقاومة وتهددهم باستخدام الاسلحة الكيميائية بعد ساعات، لاسيما وان اعداداً كبيرة من العوائل كانت ما زالت داخل المدينة واكثرهم من عوائل المقاتلين، الاثر الواضح ايضاً على الموقف.

كانت القوات البعثية طول فترة الحصار تلقي القبض على السابلة الخارجين والداخلين من والى المدينة، ويتم اعدامهم خارجها بتهمة الاشتراك في الانتفاضة. واخيراً تمكن الجيش من الدخول الى مركز المدينة بعد تكبُّده خسائر جسيمة. ورغم انسحاب عدد من المقاتلين اما بسبب نفاذ عتادهم أو لاجل انقاذ العوائل المحاصرة عبر البساتين، فقد بقيت اعداد اخرى يقاتلون العدو من بيت لبيت فاستشهد منهم من استشهد وجرح من جرح، ولقد رأيت مفردات كثيرة من مواقف جهادية دفاعاً عن كربلاء المقدسة تشير الى قمة التضحية والفداء، كما رأيت مفردات اخرى في جبهة العدو تقشعر منها الجلود تشير الى خسة العدو وقسوته من اسرافه في القتل وهتك الحرمات، والذي يتذكر كلمات صدام حسين عندما زار كربلاء بعد احتلالها من قبل الجيش يدرك عمق النذالة التي اتسم بها هو وقواته فقد قال "اني ما دخلت الحضرة لكنهم قالوا لي ـ ويعني شرطة الاوقاف ـ انهم غسلوا الحضرة ست مرات وما زالت الدماء موجودة".

هذه الدماء التي ذكرها صدام حسين، كانت دماء اطفال ونساء، لم يتمكنوا من ترك المدينة فلاذوا بالحضرة الحسينية والعباسية كمأمن لهم من سطوة الجيش الذي لا يرحم فما ان وصل الجيش الى العتبات حتى ابادهم جميعاً داخل الاضرحة المقدسة. ولكن صداماً ومن غير حياء أو خجل يأتي ويقول:" ان هذه الدماء هي دماء الرفاق من البعثيين الذين اعدمهم الغوغاء داخل المراقد المقدسة ". وامة كربلاء كلها تعلم ان الخبثاء من البعثيين الذين وقفوا بوجه شعبهم دفاعاً عن صدام حسين وقتلوا عدداً من افراد الشعب، قتل من قتل منهم خارج المراقد الشريفة لا داخل الاضرحة المقدسة فهذه الاضرحة حكمها عند الشيعة حكم المسجد يحرم تنجيسها، فكيف يعدم

المجاهدون وهم الفئة المؤمنة جناة البعث داخل العتبات المقدسة.

ان الذي لا يرى حرمة للعتبات المقدسة ومساجد الله ويزهق النفوس ويهتك الاعراض في العراق معروف لدى العراقيين وغيرهم، ومن غير صدام وحثالته من البعثيين مَنْ هتك الحرمات من قبل، فليقل صدام ما شاء في تلك الدماء فالتأريخ يعرف الحقيقة والشعب شاهد عيان على جرائم المجرمين.

وهذه آثار قذائف مدفعية البعث التي ما استثنت المقدسات في كربلاء والنجف والكوفة. ترى هل كانت مدفعية الشيعة هي التي استهدفت قباب أضرحة الحسين والعباس وعلي بن ابي طالب عليهم السلام وهم داخل المدينة؟ أم هي آثار من آلاف من الجرائم التي ارتكبها هذا الحزب العميل في العراق منذ توليه الامور....

فعلى من يكذب صدام حسين وشعب العراق سمع وشاهد ولمس دجله وجرمه بحق الوطن والشعب ورأى كيف باع العراق وشعبه بالامس القريب على جورج بوش والصهيونية بثمن بخس، فليقل العميل ما شاء فالذي فعله وصمة عار في جبينه وجبين حزبه وعشيرته وجبين من آزره بقول أو فعل، لا تزيله كذبة ولا تنسيه الايام مهما طالت.

وستبقى هذه الدماء التي اريقت في كربلاء والنجف والكوفة والحلة والبصرة والعمارة وباقي المحافظات رمزاً يمثل صراع الحق والباطل لتجتمع يوم القيامة مع دماء شهداء الطف التي اريقت دفاعاً عن الحق والدين والانسانية وهي تشتكي الى الله مظلوميتها فلينتظر صدام ومن اعانه هنالك عذاب الله وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون.

ان ما فعله جند البعث بأمر من صدام مأساة لا يمكن شرحه بقلم ولا بيانه بلسان، لقد رأيت الجيش وهويقتل دون رحمة ويطلق النار على السيارات المارة عبر الطرق القريبة منه ليقتل من فيها دون تمييز، رأيت ذلك في الطريق العام بين كربلاء والنجف في الحد الفاصل بين مفرق الكفل والحيدرية، وكذلك قرب خان النخيلة كما ادى القصف الوحشي لمدينة كربلاء الى نزوح مئات الالوف من النساء والاطفال والشيوخ والمرضى، رأيت اطفالاً مروعين ونساء ثكلى، هذه تبكي اطفالاً لها قتلوا، وتلك

تولول على بقية عائلتها التي دفنتها القذائف تحت الانقاض، واخرى تركض يمنة ويسرة بحثاً عن طفلها المفقود، ولقد صادفت رجلا طاعناً في السن على دراجة هوائية وقد وقف للاستراحة فسألته عن وجهته، فبادر في شرح مأساته قائلاً:

لقد سقطت قذيفة ثقيلة في داري اخذت جميع من في الدار ولم يسلم من عائلتي سواي فجمعت الجثث الممزقة في فناء الدار وحرت في امري واخذني الذهول ولم ادر ما اصنع والمدفعية لم توقف قذائفها لحظة فاخذت دراجتي وتوجهت نحو النجف هرباً وقد تركت جثث اولادي وزوجتي على وضعها... ثم خنقته العبرة ومشى....

ورأيت اعداداً كبيرة من النازحين يواصلون السير نحو النجف وعشرات الالوف اختارت الاختباء في بساتين المنطقة بين الهندية والكفل، وقد خرجت هذه الالوف من منازلها دون ان تحمل معها شيئاً من غذاء أو غطاء، فالقصف المدفعي الكثيف على المدينة اربك الناس حتى بات هم الواحد منهم انقاذ روحه وارواح اطفاله. والذي الفت النظر يومها هو تصرف البعثيين مع هؤلاء الابرياء فانهم لما علموا بتواجد الناس في بساتين المنطقة سارعوا الى قطع مياه الانهار التي تمرّ بالمنطقة من مصدرها سدّة الهندية، فأخذ الجوع والعطش من هذا الكم الهائل من النساء والاطفال مأخذاً، واضطر المساكين الى شرب المياه الراكدة وأكل حشائش الارض مدة اسبوع، واجبر الجوع والعطش الغالبية من هؤلاء على الرجوع الى المدينة بعد سقوطها بيد الجيش مباشرة رغم المخاوف التي كانت تكتنف عملية العودة.

وبعد سقوط مدينتي الحلة وكربلاء بيد قوات البعث، شرعت القوات بالتوجه نحو مدينة النجف والديوانية. فاما القوات التي توجهت الى الديوانية فقد بلغت هدفها قبل وصول قوة النجف اذلم تلاق الا مقاومة محدودة على الخط السريع في منطقة بساتين تمكنت من الغلبة عليها والإندفاع في ارتالٍ نحو الديوانية.

اما النجف وباعتبارها مركز القيادة الشيعية والاستيلاء عليها يعني انتهاء الانتفاضة، فقد اندفعت القوات التي عبرت جسر الكفل نحوها بشراسة ووحشية وكان قوامها في اول صولة افواج مشاة من الحرس الجمهوري تساندهم عدة بطريات

مدفعية وعدد من الطائرات المروحية وقد اصطدمت تلك القوات بمقاومة عنيفة من ابناء النجف وردّت على اعقابها بهجوم مضاد ساحق من المدافعين عن النجف من الشباب المؤمن فقتل عدد كبير منهم وفر الباقون عبر بساتين المنطقة صوب الهندية، وقد وقع عدد من هؤلاء الفارين في قبضة عشائر المنطقة التقيت بهم وكان جميعهم من الحرس الجمهوري فسألتهم عن وحداتهم ووجهتهم واهدافهم فاجابني بعضهم بان وحدتهم كانت جنوبي الأنبار وانهم لم يغادرو معسكرهم منذ بداية حرب الكويت وليس لديهم اجهزة راديو ليعلموا من خلالها الاحداث. وان قادتهم اخبروهم بان القوات الامريكية احتلت مدن النجف وكربلاء وقد طُلب منا التوجه فوراً لتحرير هذه المدن من قبضتهم، فلما قربنا من النجف راينا القوة المواجهة لنا تتألف من اناس عاديين يرتدون ملابس مدنية عراقية فيهم الشيخ الكبير والشباب والاحداث فعرفنا الحقيقة وفضلنا الفرارعلى المقاومة وقتل ابناء شعبنا فوقعنا في قبضتكم.

هذه الرواية وان كانت مشكوكة لان الطرق التي سلكتها هذه القوات كانت مليئة بالشواهد المبينة لحقائق ما كان يجري، الا ان مثل هذه الاكاذيب على افراد الجيش غير بعيد عن حزب البعث، وقال البعض الآخر ان وحدتهم اشتركت في معارك الحلة وهم يعلمون جيداً من يقاتلون، وان الاوامر صدرت اليهم بقتل الناس دون رحمة، واعترف بانه راى جنوداً من وحدته يفتحون النار على اطفال ابرياء. وهذه الرواية هي الاقرب من تصرف القوات البعثية.

ورأيت الهجوم الوحشي للجيش على البيوت المحاذية للجسر وكثافة القصف العشوائي عليها. فلما بلغت تلك القوات حافة الطريق العام الموصل بين النجف وكربلاء انتشرت فاتحةً النار على السيارات المارة فاحترقت عدة منها بمن فيها من المسافرين الأبرياء. وتمكنت الاخرى من مواصلة السير رغم اصابتها نحو النجف أو الحيدرية. فالسيارات التي وصلت الحيدرية كان جميع ركابها جرحى ولعدم وجود مرفق طبي في الناحية اضطر الناس الى نقل هؤلاء الى الهندية التي كانت في يد القوات الشعبية.

وبعد هذه الهزيمة التي لحقت بقدمات جيش البعث زجت السلطة تعزيزات جديدة عبر نفس الطريق وواصلت الضغط على النجف بدكها بالمدفعية البعيدة

وبكثافة اضافة الى صواريخ (ارض ارض)كانت تطلق من معسكر المحاويل فكانت القذائف تتساقط على المدينة كالمطر فاضطرت العوائل لترك المدينة الى الصحراء عبر بحر النجف وقذائف صدام تلاحقهم حتى هناك وطائراته السمتية هي الاخرى تصب حممها على المشردين من النساء والاطفال والشيوخ.

ولقد واجهت هذه التعزيزات الجديدة مقاومة بطولية فذة رغم تقدمها النسبي ووصولها الى مشارف المدينة فاضطرت السلطة الى ارسال قوات من جبهة كربلاء عبرالطريق العسكري المار بموازاة الخط الاستراتيجي لان الطريق العام من كربلاء وحتى مفرق الكفل كان مازال بيد القوات الشعبية من ابناء العشائر، كما قام بعملية انزال قوة مؤلفة من الرفاق في منطقة البحر غربي المدينة بواسطة المروحيات. فوقعت معارك طاحنة بين القوات المهاجمة والمدافعين عن النجف تكبد جيش البعث فيها خسائر فادحة جداً بالارواح والمعدات. ولقد عبرت النجف بمقاتليها عن اباء الضيم والبطولة في اروع قتال على كل شبر من تلك الارض المقدسة في حين عبَّر العدو الحاقد عن قمة الدنائة بما ارتكبه من جرائم.

واخيراً تمكن البعثيون من حسم الموقف لصالحهم، واول عمل اجرامي قاموا به هو اقتحامهم منزل المرجع الديني الكبير اية الله العظمى السيد ابو القاسم الخوئي في الكوفة واقتياده الى بغداد مع عدد كبير من العلماء وطلاب العلوم الدينية.

اما الجرائم التي رافقت تقدم الجيش ودخوله المدينة فحدث عنها ولا حرج انقل لكم بعضاً منها:

١ ـ قتل عدد كبير من المدنيين وترك جثثهم متناثرة في الشوارع والساحات لمدة اسبوع تقريباً دون دفن.

٢ ـ الجريمة العظمى التي ارتكبتها قوات صدام حسين كانت في الصحن والروضة الحيدرية الممتلئة بالنساء والاطفال الذين لم يتمكنوا من الفرار الى خارج المدينة وظنوا ان البقاء داخل الحضرة والصحن الشريف هو الضمان الوحيد لسلامتهم، اذلم يتصوروا اعتداء الجيش عليهم في هذا المكان المقدس وقد قدر عدد الموجودين هناك بخمسة الاف أو اكثر، وقد نقل لي آخر من خرج من المرقد

قبل اقتحام الجيش له بقليل انه راى الصحن الشريف قطعة سوداء من كثرة النساء والاطفال ولم يكن بينهم مقاتل واحد حيث انسحب المسلحون من اطراف الصحن الشريف لتفادي الاشتباكات قرب هذا المكان المقدس ولكي لا يصاب هذا الجمع بنيران الجيش اثناء الرد المقابل. وقد كانت جميع ابواب الصحن الشريف مغلقة باستثناء باب القبلة التي كانت جبهتها امينة. ولما حاصر الجيش المرقد المطهر فتح النار على اللائذين بهذا المكان المقدس ليمتلأ المشهد الطاهر بجثث النساء والاطفال الابرياء، وترك البعثيون تلك الجثث دون دفن امعاناً منهم في تحقير الشيعة ومقدساتهم لأيام. لكن القساة انزعجوا من رائحتها، وكان الحل الذي توصلوا اليه هو احراق الجثث داخل الصحن.

٣ ـ نهب متاحف الأئمة والنفائس وما تمكنوا منه من ذهب الاضرحة الموجودة وحرق المكتبات والكتب النفيسة. [١]

٤ ـ هدم المساجد والحسينيات والمدارس الدينية في مدن الشيعة.

٥ ـ ومن جملة جرائمهم اقتحامهم للبيوت بذريعة التفتيش وهتك حرمتها والاعتداء على النساء والرجال المتبقين والقاء القبض على الكثير منهم واقتيادهم الى فرق الاعدام أو المعتقلات وسرقة اموالهم اثناء عمليات التفتيش وجرائم اخرى يعجز اللسان عن ذكرها، ومن المضحك ان هذا الذي فعل كل هذه الافاعيل بالشعب هو الذي يدعي حب الشعب له وحبه للشعب، ولو قدر لأحد جمع مفردات الجرائم التي ارتكبتها القوات البعثية من مصادرها وشهودها في مؤلف لضم ما لا قبل للأولين والآخرين بها من قبح التصرف.

ان عمليات الابادة وقتل الشعوب التي نرا ها في التاريخ كانت تقع من قبل الاعداء الخارجيين اومن فئة اعلنت العداء لفئة اخرى، لكن هذا القاتل يدعى انه ابن

---

(١) - ومن العجيب ان يتهم صدام الشيعة بسرقة الاضرحة المقدسة وهو يعلم جيداً ان اي شيعي لا يتجرأ في ارتكاب مثل هذه الجريمة لانهم يقدسون هذه المراقد وانما الذي يمكنه فعل ذلك هو عدو الائمة عليهم السلام من البعثيين والنواصب.

الشعب وما جاء الاّ لخدمة الشعب، ولاادري اين الخدمة من هذه الجرائم التي لم يرتكبها حتى العدو الحاقد. واني لعلى ثقة بأن ما ارتكبه حزب البعث من جرائم في المحافظات الاخرى لا تقل كمّاً وكيفاً عما ارتكبه في النجف وكربلاء والحلة. وقد كان الناس يرددون في ايام الانتفاضة وبشكل واسع تصريحات حسين كامل وزير دفاع النظام الحاكية عن تصميمه على قمع الانتفاضة ولو كلف ذلك قتل خمسة ملايين من العراقيين.

ان ما ذكرناه من الجرائم التي ارتكبت ايام الثورة الشعبية على يد البعثيين هو غيض من فيض الواقع الذي نضح من الاناء الخبيث لهذا الحزب بل هي قطرة من طوفان عفلق الذي استهدف بها اصول الخير وفروعه في العراق. ولكن هل بلغ الشر مناه بما جنته يداه ام ما زال في جعبته ما لا عين رأت ولا اذن سمعت؟ وانتهت الانتفاضة دون استسلام حتى آخر رصاصة، وسيبقى شعب العراق يفتخر بهذا الموقف البطولي في حرب ابادة ظالمة قلَّ فيها انصاره في حين تعاضدت ضده قوى الشر والعدوان ولم يقل نعم لصدام أو لامريكا كما قالها صدام لأمريكا ساعة الضعف وهذا هو عين النصر.

لقد فعل حزب البعث ما فعل في العراق وهو مازال يجول بين الاشلاء دون ان يتمكن الشعب رغم الصمود البطولي من انقاذ نفسه والتخلص من المجرمين بشتى محاولاته. ففي الوقت الذي يراود الطغاة امل البقاء بوعود من الاسياد بدا يتحكم في الشعب مرة اخرى الحيرة في سبل النجاة بعد الشك في قدرته الذاتية وبعد ان لمس طغيان سياسة الغاب في العالم وتيقن من خذلان الناصر، ترى ما هو المتوقع في قابل الايام؟؟؟... فهل ننتظر تشييع نعش البعث المضمخ بيد الغيب ام نتوقع سماع المزيد من عويل الثكلى وانين المعذبين هنا وهناك في ارض الرافدين؟

هذا ما ينبغي ان يطرح على بساط البحث بين العراقيين داخل العراق وخارجه فالأمر يخصهم دون غيرهم والتأريخ لم يبخل عليهم بعبره فقد علم الجميع ماكان نصيبهم ومن سبقهم جراء اخطاء المواقف في ما مضى وما يكونوا عليه مع عدم الاتعاظ فيما ياتي وهم يتلون قوله تعالى { ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم }

فماذا يجب عليهم فعله وما هو مسؤلية كل فرد منهم اذا ارادوا النجاة؟

ذاك ما اردت ان اقول فيه كلمتي تنبيهاً عسى ان اكون بذلك قد وفقت في تقديم خدمة. فان كنت مصيباً فذاك ما ارجوه وان كنت مخطئاً فعلي خطأي وأأمل ان لايتهاون ذوو الرأي والفكر في البحث عن مخرج سريع لهذه الازمة التي تهدد العراق كياناً وشعباً عسى ان تكلل جهودهم بنجاح ويجتمعوا على الرأي الأصوب الذي فيه صلاح العراق دون النظر الى المسائل الشخصية أو السعي لجر النار صوب قرصة الصديق فالشعب والوطن اولى بالمراعاة من الاشخاص والاصدقاء.

ان شعب العراق لم يخل يوماً من دعاة خيرٍ عبر تأريخه ولم يشك احد في صدق نوايا اولئك المجهولين الذين نذروا انفسهم لخدمة الشعب والوطن، لكن نتائج جهادهم كانت بين مدٍ وجزر في خطوطها البيانية دون ان تبلغ مرتبة مثمرة في يوم ما قبل هذا التاريخ، وذلك بسب فقدان الشروط المطلوبة لحركتهم الجليلة، كما لا ينكر وجود الحركات المعارضة للحكومات العراقية المتعاقبة حتى عهد البعث وان كانت وجهاتها متفاوتة واخلاصها لم يسلم من سوء ظن، وهي على علاتها لم تتعدَّ اصابع اليد عدداً.

لكن الملفت للنظر هو الانفجار الكمي المفاجئ في عدد هذه الاحزاب بعد حرب الخليج مباشرة وحين بان الضعف في صفوف البعث، اذ لوحظ ان العشرات من الاحزاب والحركات اعلنت عن وجودها وفي بلدان متعددةٍ كما لوحظ سعي جهات دولية في تعريف شخصياتٍ وافكارٍ غير معروفة من قبل، والدعوة الى جمعها لمناقشة المسألة العراقية والسؤال الذي يطرح نفسه على كل عراقي هو: ماذا يعني هذا التشتت والتفرّق؟ وماذا يهدف كل حزب من تلك الاحزاب بتمسكه اللامحدود بما يعبر عنه بالمبادئ؟ وقد سمع الجميع انباء اجتماع اكثر من عشرين حزبا في فينا واجتماع عدد اكبر منها بعد ذلك في شمال العراق لتتمخض جلساتها عن تشكيل حكومة في المنفى في حين اعتزلت جهات اخرى تلك الاجتماعات.

ترى ماذا يقول الشعب العراقي في كل هذه التمثيليات التي اقيمت على مسارح دولية باسم العراق؟ انا كعراقي اسأل شان الملايين الذين ارهقهم الاستضعاف والتشرد لماذا كل هذه الاحزاب والفئآت، ولماذا ركنت كل فئة الى دولة معينة وهل يصح للذين

تمكنوا من انقاذ انفسهم بالفرار من العراق ان يلوذ كل منهم بركن في هذا العالم المتشرذم ليفتح حانوتاً يبيع فيه وطنياته باسم العراق ثم يفوض نفسه في لاابالية برأي شعبه ليتكلم باسمهم ويختار ما يشاء من فكرة على ان لا يتفق مع غيره في خط فكره ولماذا لم يتخذ اولئك من ساحتهم الحقيقية منبراً اساساً ثم ليفعل ما يشاء خارج تلك الحدود كسباً للتاييد والاعلام.

اسئلة واسئلة مازال الناس عاجزين عن ايجاد اجوبة مقنعة لها، ولم يتطوع ارباب الحركات في تقديم التفسير الشافي لها بلغة الشعب لا بلغة الساسة، وهم يدركون سعة افق الشكوك بعد التجارب الماضية اثباتاً لحقوق هم اولى بالمبادرة في اثباتها. ولا يدورون في افلاك مشبوهة ومعروفة المراكز وقد سألنا سابقاً متى توقع العراقيون من واشنطن ولندن وباريس خيراً حتى يظنوا هذا اليوم خيراً بدموع التماسيح التي ذرفت فجاة بعد حرب الخليج من أجل شعب العراق.

لقد ضاق الجميع من مرارة الحياة في ضل حزب البعث المتسلط، سواء في داخل العراق، أو الذين هربوا الى بلدان العالم الاخرى، والجميع يتطلع الى يوم الخلاص، وهم بين قلة منظمة في كتل ترفع شعارات مختلفة وكثرة مشتتة غارقة في بحر الحيرة مذبذبة الرأي خائرة القوى من عوزها، يتمايل افرادها مع ريح الحاجة حيث دارت، فلا الاقلية الواعية سعت عبر هذه المدة في توحيد صفوفها والتصالح على منهج وسط يسلك بالجميع الى حد مطلوب من الاهداف لتتكاتف جهود الجميع في استغلال الاكثرية، ولا الاكثريه التائهة اهتدت الى موقف جرئ من تلك الخطوط المعروفة بقبول امثلها، أو فكرت يوماً في لم شمل نفسها لقبول مسؤلية الدور في مثل الظروف التي تعيشها.

هذا وسوء الظن الحاكم في الاكثرية وتشرذم فئات الاقليلة زادت الطين بلةً حتى بات الشك في النوايا حاجزاً بين المرء وغيره فرداً كان ذلك الغير أو مجموعة ولو قدر للعراقيين البقاء على هذا الوضع لما تمكنوا في قادم الايام من التخطي صوب الخلاص فضلاً عن الوصول. فاذا كانت الحالة هذه ـ وهو الحق ـ اليس من الواجب ان ينظر كل الى صحيفته ووجهته فرداً كان في الاكثرية أو قائداً من الاقلية؟ وهل عزَّ الحل واقعاً

بحيث لاطريق وسط يتفق عليه الجميع للوصول الى هدف نبيل هم في امس الحاجه اليه ام ان المسألة تعلقت بالاهواء؟

ان الشعب بقدر ما هو مدان بسبب تهاونه يدين اولئك المتهاونين من اصحاب الرأي والفكر الذين عجزوا عن توحيد صفوفهم بل وان تماديهم في التشرذم والتعصب يستحق عند الشعب ما هو اكبر من الادانة فكيف يأملُ من طمع في كرسي الخلافة أو من رأى في عصابته انها الاولى بتسلم زمام الامور أو من انقطع الى الله في نواياه طالباً الإصلاح وتحكيم امرالله في الخلق ان يتعامل مع شعب لم يجد في ساحته موضع قدم يسع فكرته. فجميع الحركات تنقصها الوسائل الاعلامية والصراحة التي تعكس جوهر افكارها بصورة جليَّة وسط الجمهور المسجون في حدود القوة المتسلطة. وماتملكها من تلك الوسائل ومن الصراحة لا تتجاوز تغطيتها نسبة غير قابلة للذكر ومواد مطموسة المعالم، وبذلك تحددت معالم تلك الحركات في الوسط الشعبي على انها تيارات سياسية محدودة القدرة والفكرة متهمة بالعمالة لدولة أو فكرة سياسية. وهكذا احاطت الشكوك بمصداقيتها عند الجمهور. ولو تأملنا مصدر الشكوك التي شملت جميع الحركات الاصيلة منها والعميلة لرأينا جذورها في سببين رئيسيين:

- **الاول:** فعاليتها الاقل من توقع الجمهور وفي خط بعيد عن رأيه.
- **الثاني:** عدم احاطة الناس بحقائق تلك التشكيلات وافكارها ونوعية ارتباطاتها بالدول الاجنبية. لذا نرى سهام الاتهام تصوب نحوها جميعاً دون تمييز كما نرى درجة علاقة الجمهور بها لا تتعدى التأييد السطحي النابع من الاستجابة لنداء الاختناق والتي سوف تتلاشى بمجرد الشعور بالخلاص تاركة اياها في ساحة الغربة والانفراد دون حماس للانسجام استعداداً لاجتياز العقبات الحتمية التي تنتظر اية محاولة تغيير للنظام في العراق.

هذه حقائق لايمكن انكارها أو التقليل من شأنها مادام الشعب هو الميزان في نظر الحركات اجمع كما هو المدعى، اذ لا قوة لسلطان حقيقة ما لم تكن مستمدة من الشعب ولا قوة تنبع من شعب ما لم يؤمن بقضية، ففهم الشعب للقضية هو

الاساس وهذا الاساس مع الاسف هو الجانب المهمل لدى الحوكات رغم الضجيج المسلط على الجوانب الاخرى البعيدة.

فقضية الوعود باتت غير مؤثرة بعد وعود عرقوب التي طالما غنى بها الساسة من قبل فهل يعيد معارضوا النظام النظر في جوهر افكارهم وخططهم المستقبلية واساليب تعاملهم مع القضية بعد لمسهم النتائج السلبية من المسيرة القديمة؟ ام انهم مصممون على السير في نهج الاسلاف ليذكرهم التاريخ امناء في حمل امانة الاثام والشقاء الى الابناء والاحفاد ليبقى العراق مادام التاريخ موطن العذاب ومعين اللعن؟ أو ليس من الافضل لمن قدَّم هويته للعراقيين من قبل واذاقهم كأس العبودية ان يقدم استقالته من العمل السياسي ولا يسعى بعد لطمة الايام في عرض نفسه ضمن هذه الحوكات الجديدة سواء في زيه القديم أو بالتنكر في برد المصلحين؟.

فماذا لدى البعثي المنشق مما هو ليس في تراث صدام حسين من الوحدة والحرية والاشتراكية والرسالة الخالدة التي ملات قلوب العراقيين دماً وماذا لدى القومي غير حرسه المنكوب الذي لا آراه الا كالذئب الجائع بعد هذه المدة من التغرب في غابات اوروبا وآمريكا وقد منعوا من التقوت فيها الا بما يمنع عنهم الموت وقد حدّوا الانياب لتمزيق الشياه المسكينة الممنوعة من مراعيها في ارض الرافدين. وما للشيوعية والعراق المسلم هيهات هيهات لقد استحوذ الشيطان عليهم فأنساهم الضمير والعقل والمنطق، ولا ارى المروض منفكاً عن مروضه الماكر وبئس للمارقين الظالمين بدلا.

واما كلمتي مع الشعب فهي طويلة لايسعها هذا المختصر ولئن امهلتنا الايام فسوف اذكر قولي معهم في مقالة مستقلة. ولاجل ان لا اترك ما لم يدرك كله لم ارَ بداً من كلمات لا مفّر منها فاقول: ايها الشعب المظلوم ويا من سحقته سنابك خيل الظالمين الا من صحوة تعيد لكم بصائركم التي ظلت عنكم في ظلمات الايام؟ اما من فزعٍ يوقضكم من نوم غفلتكم؟ ومن منكم يخفى عليه دور الشعب ومسؤولياته التاريخية تجاه الخط الاجتماعي المطلوب منه عقلاً وشرعاً؟ اولم تسمعوا " كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ". وتحمل المسؤولية واجب عقلاً لمن لا دين له وشرعاً لمن آمن منكم بالله واليوم الآخر.

ان الاخلال بالواجب في اداء الدور جرم مخل بمرتكبه اولاً في قبال الله تعالى والعقل ودفعٌ لعجلة المجتمع نحو الانحراف ثانياً. انكم لتعلمون انه كلما كثر المنحرفون كلما كان قطار المجتمع اقرب للخروج من المسار الصحيح وتعلمون ايضاً انه اذا تفشى مرض عدم الشعور بالمسؤولية كان ذلك عاملاً مهماً في انتشار جرثومة الفساد في المجتمع. فاذا علمتم هذا وتعلمونه يقيناً، علمتم اهمية دوركم كمجموعات وافراد وعلمتم كم انتم مقصرون.

انكم اليوم تعيشون واقعاً مراً، وتدركون مواقع الضعف والخطأ بعد مروركم بسلسلة من التجارب فما عساني اقول لكم وانتم تتذوقون مرارة آثار ضياع المسؤوليات، وكيف انصحكم وقد نصحتكم الايام، فهلاّ اتعظتم بآلام جراح لا ابالیتكم؟ اولم تكفكم الضربات الموجعة لتعودوا الى رشدكم وتمعنوا النظر في مسيركم لتروا ايَّ مبدء انتم عليه ومدى التزامكم بما تظهرون من عقيدة؟ أو ما زال بعضكم يدَّعي الاسلام وهو يصفق لبعث عفلق أو يركع امام دنانيره؟ أو يستقبل بعضكم قبلة الاسلام وهو يدعو الله لنصرة عملاء امريكا والانجليز وغيرهم؟ أو بقية باقية منكم يدّعي التمسك بدينه وهو يقف موقف المتفرج دون ان يحرك ساكناً لا بأمرٍ ولا بنهيٍ ازاء ما يجري بمرأى منهم ومسمع؟

على كل حال ليس لي رجاء الاّ ان اراكم قد نصحتم لانفسكم ورقيتم الى موقعكم الواقعي. وانصح كل فردٍ من ابناء بلدي ان يكون صريحاً مع نفسه ومع ربهِ وشعبه واضحاً في موقفه من مبدئه، شجاعاً في اتخاذ القرار، فاما الاسلام الذي يدّعيه دين الصدق والمروءة والشجاعة الذي من لوازمه الاعتصام بحبل الله جميعاً وتجنب الفرقة والجهاد في سبيله بالمال والنفس والصبر على بلاء الدنيا وبذل الجهد لاعلاء كلمة الله وبالاختصار اثبات العبودية لله. واما ان لم يجد في قلبه شيئاً من الله وانما يدّعي الاسلام زورا ويكتم في باطنه انه حرٌّ وليس بعبد فليكن شجاعاً وليراجع دائرة الاحوال الشخصية ليغير دينه من مسلم الى ما شاء من المذاهب فالشجاعة من اجمل صفات المرء. فان لم يفعل هذا ولا ذاك فلا يشك في انه عمل غير صالح وليس هو بالعنصر الذي يستحق رأيه الاحترام أو وجوده الاهمية فهو بهيمة بل اخس.

وختاماً ادعوالله ان يأخذ بأيدي الجميع نحو الأصوب، وان يمن على شعب العراق والشعوب المضطهدة الاخرى بالفتح والفرج، وينجيهم من هيمنة الاستعمار وظلم أذناب الاستعمار من الحكام المتسلطين، انه سميع الدعاء (اللّهم انَّا نرغب اليك في دولة كريمة تعز بها الاسلام واهله وتذل بها النفاق وأهله وتجعلنا فيها من الدعاة الى طاعتك والقادة الى سبيلك وترزقنا بها كرامة الدنيا والآخرة).

مرحلة ما بعد البعث

لم يكن من المتوقع أن ينتهي الفصل ما قبل الأخير من مسرحية البعث بهذه السهولة، لأسباب يمكن استنباطها من الفصول السابقة، فالبعث القوي المدعوم امريكيا وعالميا واقليميا، والبعث النافع للجميع سوى العراق والعراقيين، لا يمكن بحسب المعايير المعروفة ان يغتال بين عشية وضحاها بيد سيده وصانعه ومربيه المستفيد. والمسألة في غنى عن الدليل، فالاجماع العالمي على معارضة سقوطه، ودموع الأسى التي ذرفتها الاشتراكية العالمية والقومية الاقليمية والاسلامية السياسية بمن فيهم اعداء البعث للأمس القريب كافية للتدليل على قوة الاسناد وفرصة البقاء، وما أخطأ من ظن يومه أن البعث بعث حقيقي لا موت معه، فسبحان الله الذي بيده ملكوت كل شيء المقلب للقلوب والابصار الذي يهلك ملوكا ويستخلف آخرين.

وقد ارتأيت اضافة هذا الفصل (مرحلة ما بعد البعث) الى الكتاب في طبعته الثانية اتماما للفائدة واكمالا للقصة التي افقدت فصولها صواب شعب برئ لا راحم له الا الله في ايام طغيان فئات من البشر لا تعرف الا مصالحها الضيقة متجنبا تفصيلات المعروض من احداثها على شاشات التلفزة العالمية مكتفيا بتعليقات واستفسارات عن زوايا اهملها إعلام الصديق وكتمها أو حرفها إعلام العدو.

ولكي لا اثقل على المطالع بطول الكلام احدد ما اريد قوله في نقطتين اساسيتين تعدان مادة القصة ابتداء وانتهاء وهما :

١- من الذي يقود سفينة العالم السياسي وكيف يمكن معرفة الحقيقة؟

٢- ما حال العراق ومصيره بعد سقوط البعث؟

أما الأمر الأول: فلا شك ان البسيط من الناس يتصور أن الساسة أولياء الأمر المسلطين على رقاب العالم هم وحدهم ملاحوا سفن شعوب العالم باستقلالهم، لذا يوجه اللوم في كل نازلة حصراً على الحكام، سواء في الدول الغالبة أو الدول المغلوبة، وكأن الحكام هم بناة فكرة الدولة ومخططو منهج الحكم وقد خفي عليه أن السياسة دين متعدد المذاهب ترجع جميعها إلى أصل ربما اختُلف فيه حسب المعتقدات إلى موحدين أو ثنويين أو قائلين بالثالوث، تماما كما هو وضع الأديان السماوية، فالإسلام والمسيحية واليهودية والمجوسية كلها أديان سماوية لكن أتباعها اختلفوا في أصولها بين قائل بأن المبدأ واحد هو الله تعالى وقائل بأن المبدأ اثنان هما إله الخير وإله الشر وقائل بالثالوث وكلها أديان.

والسياسة في عقيدة معتنقيها كذلك، فمنهم من يرى أن أصلها واحد وهي الصهيونية العالمية، وآخرون ثنوية يعتقدون أن الرأسمالية والشيوعية هما أساس كل الأحزاب وإن اختلفت في شعاراتها وأهدافها وآخرون قائلون بالثالوث بل وأكثر بعد إقحام إسم الدين وعلماء الاجتماع في قاموسها. ولا دليل يساعد على تعيين الحقيقة مع أن ظني الغالب إن لم أقل يقيني قد استقر على أن سبل البشر منذ أصل الخلقة قد انحصر في طريقين لا ثالث لهما وهما سبيل الرحمن وسبيل الشيطان، ويؤيدني في هذا المعتقد آيات من القرآن الكريم، فحزب لله وهدفه ابتغاء الآخرة، وحزب للشيطان هدفه كسب حطام الدنيا، وقد تشعب من الحزب الأول مئات الأديان كما تشعب من الثاني مئات الأحزاب، ومن خرج من خط الله فهو داخل في خط الشيطان، قال تعالى: " وإن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله " الأنعام/١٥٣.

لكن الذي يحلل بالمنظار السياسي البحت يرى أن هذه الأحزاب المتكاثرة إنما هي ناتجة من تنافس الأفكار الوضعية وسباقهم في السيطرة ما أستطاعت على مقدرات شعوب الأرض تحت عناوين استحكم التناقض فيها بين الأهداف المعلنة المغرية لعقول العامة وأهدافها الخفية المتمثلة في تحقيق غرضين هما السيادة والمال،

ويظهر تناقض شعاراتها مع مبادئها بعد وصولها الهدف، فعندها ترى عيانا أن الذي كان يرفع شعار القضاء على الفقر ويعد الجماهير بالرفاهية صار وبالا على الفقراء بعد تسلمه الحكم، والذي تغنى بالحرية والديموقراطية قد تحول إلى دكتاتور غاشم، والذي غسل أدمغة المتدينين بوعد تطبيق شرع الله وعدله تبدل إلى علماني يعاني منه الدين أكثر مما يعانيه من سائر الأحزاب، لمكان نفاقه وخطر النفاق أخطر على الدين من خطر الشرك.

ومما تقدم يظهر جليا أن مرجع تناسل الحكام والأنظمة تعود في الحقيقة إلى حملة أفكار الأحزاب السياسية وقياداتها التي تلعب في ساحة الأرض شرقا وغربا، فلا دخل للشعوب فيما يفرض عليها من أنظمة رغم التظاهر المسرحي في نسبة التغيير إليها عبر إقحامها عمليا في مسرحيات ظاهرها الديموقراطية بسوقها نحو صناديق الانتخابات، فالعملية الانتخابية في الدول الديموقراطية شيء والتطبيق العملي للمناهج في تلك الدول شيء آخر، تماما كما هو الحال في الدول الاستبدادية، فعمليات التبديل والتغيير تابعة إما لمصلحة تقتضيها الظروف أو لتغيير في نتائج سباق الأفكار. ولا يرشح إلا من زكاه لجنة خاصة تنتخبها القيادة وظيفتها تحديد ذوي المؤهلات من بين جموع المرشحين فمن فلت من هذا الفلتر فاللجنة النهائية لفرز الأصوات في انتظاره وفي اللجنتين يقع التزوير غالبا. ولئن ترشح مؤهل واقعي فقيود القانون المنسوج وفق متطلبات سادة العالم تحول بينه وبين ما يريده الشعب.

وإذا علمنا أن اللاعب الرئيسي في ميدان فرض الأنظمة والحكام على شعوب العالم هو شبح خارج عن جغرافية البلدان، فليس من المنطق تحميل الطغمة الحاكمة وحدها مسؤولية الويلات التي تصيب الشعوب من سلوك الحكومات سواء كانت دكتاتورية فردية أو ديموقراطية تعددية، بل لابد من تحميل المسؤولية على تلك الأيادي الخفية التي هيأت هذه الأفراد أو الفئات المتسلطة وفرضتها على الشعوب، وبالوقوف على دور الجهات الخارجية يمكن للوطنيين رسم الاستراتيجية السليمة للخلاص من التبعية من جذورها، ومن غير هذا الفهم ستبقى شعوب العالم في متاهة السلطة والسلطة البديلة المعمول بها في قوانين النظام السياسي الحاكم في الأرض فعلا.

إن الشعوب تحسن الظن غالبا بالأحزاب والتيارات والشخصيات العاملة في حقل السياسة في بلدانها، فتؤيدها وتساندها سواء في صناديق الاقتراع أو ميادين الثورات والانقلابات، لكنها سرعان ما يخيب ظنها بتلك الجهات التي ما كانت لتستلم كرسي السلطة لولا مساندة هذه الجماهير المنتظرة لحاكم ناصح أمين، فيبقى اليأس والتذمر والأسى هو المستحكم في نفوسهم خصوصا مع انتظارهم الخير والإحسان والعدل جزاء لإحسانهم في الموقف. فمن الطبيعي إذن أن تصب الجماهير جام غضبها على رجالات الدولة الفعلية التي خيبت ظنهم، وتبقى في انتظار الفرج على يد عطارين آخرين يروجون لنظرية أخرى أتقنوا لعبة التضليل في تمثيلهم وإعلامهم لتلتف حول بعضهم جمهرة من الشعب كافية لترجيح كفتهم على الفئة الحاكمة ويتم بذلك التغيير، وهكذا كلما دخلت أمة لعنت أختها وهي المتاهة التي وقعت فيها شعوب العالم الثالث بالخصوص وعز عليها المخرج منها.

لا ريب أن الحكومات ـ البريئة في نظر جماهيرها من تهمة العمالة بسبب قلة الوعي والضعف الثقافي ـ تتحمل وزر خبث عملها ولا يبرء ساحتها من جريمة خيانة شعوبها بسفاسف الأعذار، كما لا يمكن تبرئة الشعوب المضطهدة من مسؤولية التهاون بحجة الجهل وحسن الظن والضعف، فالشعور بالمسؤولية من بداهة الواجبات والأنظمة لا يمكن أن تكسب قوتها التي بها تبطش من دون إسناد الشعب.

وهنا يتضح خطأ الشعوب في تعاملها مع قضية اختيار نظام الحكم، وتتجلى أسباب شقائها باختيار غير الأصلح، وهو ما يحتم عليها معرفة أمور هامة لا غنى عنها في تقرير المصير، أهمها اليقين بأن هناك أسياد في العالم قسموا بينهم منافع الأرض لا يمكن أن يسمحوا لأحد بالاستحواذ على السلطة في بقعة منها إلا بموافقتهم فإن تجرأ شعب وانتخب نظامه بنفسه أو تمرد عليهم متمرد، تكالبوا عليه وخيروه بين الطاعة والاجتثاث ، فلا تظن الشعوب يوما أنها تصيب باختيارها النزيه الحر والعدل المطلق. وعليها ـ ما دام انتخاب الحاكم ضرورة ـ أن لا تخطأ في انتخاب أهون الشرّين، شريطة أن لا تبقى في ظل سلطان ذلك الأهون شياطين خرس بل عليها أن تكون رقيبة على تصرفاته رافعة صوتها بالاعتراض دون خوف كلما انحرف في السلوك.

ثم إن أصحاب السلطة سواء كانوا أفرادا أو فئات على أصناف، فمنهم من يفرض فرضا وكيلا رسميا لسيد من السادة لا دخل للشعب في انتخابه، ومنهم المتطوع لخدمة ولي أمر يدعمه في الوصول إلى الحكم، وهؤلاء هم غالبا مجاميع منظوية تحت عناوين مختلفة كل متسربل بسربال، وهي الأفخاخ التي يستخدمها الأسياد في الإيقاع بالشعوب.

إن الذين يحكمون فعلا هم الساسة الذين يتقلدون سلطة البلد، فإن أحسنوا التصرف نالوا رضا الشعوب ودام سلطانهم، وإن أساءوا تحملوا وحدهم مسؤولية الظلم والخيانة في نظر المحكومين بتحميلهم مسؤولية الخيانة، وقد غاب عنهم دور ضلعين داخليين آخرين من مثلث مشؤوم يشاركان الساسة في خيانتهم، لا يقلان ذنبا وتسبيبا في تعاسة تنال الاكثرية دون ان يلفتا نظر الناس، وهو ما جعلهما في مأمن من تحميل وزر الآثام وهما طبقة التجار وطبقة رجال الدين. وعذرا الى عباد الله الصالحين من علماء الاسلام ممن لم يدنس ثوبه وزر السياسة المصطلحة ـ فقد يتطلب الأمر هنا كشف النقاب عن وجوه كان الأجدر أن تفضح قبل هذا تخليصا للأمة من الحيرة، والدين من التشرذم.

لا ريب أن نجاح أية فكرة أو نظرية يتطلب إيجاد التمويل اللازم والإعلام المؤثر وهو ما يحتم على الساسة تأمينهما لنجاح مسرحيتهم. فهم يحتاجون إلى دعاية ودعاة وكف سخية تسخّر العاطلين والمحتاجين والمستزيدين، للعمل الدؤوب من اجل القضية وهو ما يتطلب الاستعانة بذوي المال والثروة ولا دافع للمفكر من الاستعانة بهم، كما ان أصحاب المال بدورهم لا يخوضون هذه اللجة بغير حساب فهم يدرسون ما يطرح عليهم بدقة كما يدرسون سائر صفقاتهم ويقيسون الربح والخسارة ويحسبون لكل احتمال في هذه الصفقة الف حساب، ومن هنا تجد تفاوت الاستجابات بحسب قوة الفكرة وكفاءة اللاعبين في ميدان السياسة ومدى استعداد المحيط للتقبل ونسبة احتمال النجاح وهي معاملة شبيهة بلعب القمار فقد يفوز اللاعب وقد يخسر، ولا تخلو الاسواق من مجازفين، فمن يفوز بالدعم الكافي من الرساميل يكون حظه أوفر في دفع فكرته حتى المراد فينال كرسي الحكم كما ينال

التاجر في ظل حكومته حظه الأوفى من التجارة والمال، ومنهم من يراوح في فئة قليلة يعتمد على جمع الصدقات ممن يتبرع بالزهيد وقد ينسى ذكرها بعد حين أو يعيش بعض يوم بانعاش من الأمل وما تقطره الصدقات. فالتاجر لا محالة صار شريكا للسياسي بهذه الصفقة يجمعهما المصلحة لا الهدف المعلن في الفكرة وما عليك بالفكرة فقد تكون اقتصادية أو اصلاحية اجتماعية أو دينية أو غير ذلك. فلا يهمهما ذلك ولذا نرى انقلاب الشعار بعد تحقيق الهدف الى ضده الحرية الى عبودية والانصاف والعدل الى الحيف والظلم والاشتراكية الى الطبقية والدين الى اللادينية وهكذا. وما ذاك إلا لكون الأفكار والنظريات وسائل للوصول الى الغايات الكامنة في النفوس.

وبما ان تأثير المفكر والتاجر مهما كانا اقوياء محدود في الوسط الجماهيري غير حاسم للموقف بشكل يضمن النجاح ولا يحصل الاطمئنان بالفوز إلا بمشاركة عامة الناس من الفقراء والمستضعفين الذين يشكلون الأغلبية، ولأن هذه الاغلبية تتحكم فيها غالبا الصبغة العقائدية، كان الحاجة إلى من له الكلمة في هذه الشريحة ضرورة لا غنى عنها، ومن كرجل الدين في لعب هذا الدور؟

اذن اصبح اشراك عالم الدين ضرورة ملحة في القضية وهو الدور الذي لعبته السياسة منذ تأسيسها، ولم يسلم دين من الأديان عبر التأريخ من استغلال بعض رجاله من قبل الساسة، وهنا الطامة الكبرى فان اكثر رجال الدين يرفضون غالبا الاعيب الساسة وليس من السهل العثور على العناصر المؤثرة من صنف رجال الدين الذين يمكن الاعتماد عليهم في سوق الجماهير لصالح الفكرة، لذا نرى الساسة المحترفين والأفكار المعمرة ينتقون من بين رجال الدين الأكثر نشاطا وشهرة وشعبية فيكيدون لصيده واقحامه في مشروعهم باقناعه أو إغفاله واستغلاله، وصعوبة مثل هذه العملية دعتهم احيانا الى اختراع رجل الدين المطلوب اختراعا بانتخابهم النخب الذكية من المؤيدين لفكرتهم والأولوية في الاختيار لأفراد من الملة المقصودة وتزريقهم في صفوف المدارس الدينية المفتوحة بلا قيود ودعمهم ماديا ومعنويا وبكل ما يضمن تفوقهم واحرازهم المراتب العلمية التي تؤهلهم لنيل المقام المحمود بين اقرانهم كما تيسر سبل الترويج لهم لكسب المكانة في الوسط الشعبي حيث الهدف. وبهذا اختلط الحابل

بالنابل عند عامة الناس وباتوا لا يميّزون بين الحقيقي ليتبعوه والمزيف ليتجنبوه. وقد يصعب ذلك على الساسة المستجدين المقلدين لخطى السياسة العالمية اما بالوكالة أو بالاصالة طمعا في كسب دنيوي، فيكتفون باستمالة ضعاف النفوس ممن حشر نفسه في صفوف رجال الدين طلبا لعيش رغيد وربما لبس بعض الساسة منهم والتجار من شركائهم لباس النسك ليسيؤوا الاستفادة من الدين لتحقيق اهدافهم فيتقربون من بعض العلماء الصالحين ويكثرون التردد عليهم والتظاهر بالزهد والتقوى ليكسبوا ثقة العالم المسكين ويستغلوا بكل وقاحة هذه الثقة في اغواء العامة فينطق تارة باسم العالم واخرى بحشر العالم في قضيته حشرا بريب المداخلات والاستفتاءات مغفلا العالم ومستغلا لمقلديه، ومنهم من يتمكن من شخص العالم بطرق ملتوية واستغلال ذوي النفوذ من الحواشي.

ولحاجة السياسي الى رجل الدين وعدم استغنائه عنه سيما في المجتمعات المتدينة نرى رجل الدين محشورا في السياسة، شاء البشر ام أبوا، وشاء رجال الدين أم لم يشاؤوا، وفي تاريخنا الاسلامي الشواهد الكافية على مشاهدة رجال الدين في معسكرين متضادين دينيين كانا كما في الصدر الأول ام سياسي وديني كما في القرون الأخيرة ام سياسيين كما في عصرنا الحاضر. فقد كان في معسكر علي بن ابي طالب عليه السلام وهو خليفة المسلمين علماء دين وفي نفس الوقت ترى في معسكر خصمه معاوية علماء دين، وكان في معسكر الحسين عليه السلام علماء وفي معسكر خصمه يزيد بن معاوية علماء، وفي العهد العثماني نرى في جبهة العثمانيين الذين حكموا باسم الدين علماء بينما نرى في معسكر الغزاة الاوربيين المحاربين للعثمانيين علماء حرضوا الناس على قتال العثمانيين، وفي زماننا حدث ولا حرج فلكل حزب سياسي عالمه الديني المدافع عنه. المبارك له خطوته، وبذلك اختلط الأمر على الناس في علماء دينهم.

وفي زمن البعث القريب كان المئات من العلماء، منهم المعروف ومنهم دون ذلك، يمجدون حزب البعث ويصلون على صدام حسين ويحضرون مراسم تكريمه في حين قابلهم مئات يكفرون حزب البعث ويفتون بمحاربته كل ذلك في المدينة الواحدة والمذهب الواحد وفي جميع الاطياف الدينية. فما يكون موقف انسان عادي لم يعرف

من الاسلام الا اسمه وهو يرى العلماء بين مادح وذام بل ويرى من صالحي العلماء من يمجد بصدام حسين وحزب البعث تقية.

ان هذه الظاهرة المألوفة في السياسة هو ما تحير به العراقيون في العهد الجديد، فتراهم فرقا متشرذمة متقابلة كل يردد شعار ليكثروا بذلك الطبول وليزيدوا العراقي المسكين حيرة فلا يدري على أي هذه الطبول يرقص ولا اجده بعد الارهاق الفكري الذي عاناه في حياته بقادر على تمييز الحق من الباطل من كل هذه الأبواق والشعارات.

بقي ان نشير الى أصيل الأفكار وعميلها، فهل كل من روج فكرة وإن كانت بصبغة معروفة مستساغة في محيط بشري هو أصيل؟ الجواب ربما، لكنه كالكبريت الأحمر، سيما مع استحواذ الاقوياء على الساحة الدولية فلا يمكن لبشر في يومنا هذا ان يقول لا شرقية ولا غربية ليزاحم سوق القوى العظمى فهم بالمرصاد، واذا ما تجرأ أحد على قولها فكل القوى الدولية تستوقفه ليخيروه بين السلة والذلة ولكم في الثورة الايرانية التي نادت بالكلمة العبرة، فاسألوا الخبراء عن مسارها ومصيرها. وما الاناشيد التي نسمعها من كثير والشعارات التي تزدحم بها الجدران إلا زقزقة عصافير استظلت شجرة زيتونة شرقية أو غربية عميت على العوام مصدرها وموردها.

هذا ما يخص المطلب الأول وهو من يحكم العالم، وقد لخصناهم في ثلاثة أصناف لا يستغني من اراد معرفة حقائق النظريات عن معرفتهم، وهم اصحاب الكراسي رافعي لواء الثورة، الذين يأمرون بعد حكومتهم ولا يأتمرون وينهون ولا ينتهون الذين يظنون ان الخلق عبيد لهم، والتجار الذين يبحثون عن الربح اينما كان لا يهمهم سواه ولا يضيرهم ان يكون ربحهم على حساب كرامة شعوبهم أو قوت يومهم ما دامت الصفقة مضمونة وبعض رجال الدين الذين يبحثون عن العيش الرغيد والسمعة والجاه وان كان على حساب دينهم، فهؤلاء الثلاثة مجتمعين هم ناسجوا شبكة الحكومات الذين يديرون سياسة البلاد واقتصاده ودينه.

قد يقول قائل وما صلة هذا بموضوع العراق بعد حزب البعث؟ فأقول ان ما يشهده العراق اليوم هو من صلب الموضوع، وما هذه الفتنة العمياء التي نشهد بعض ارهاصاتها إلا نتيجة خلط في الحسابات، لخروج التغيير عن سياق القاعدة التقليدي

الذي عهدناه من قبل في مجمل التغييرات في العالم، لخطأ فادح في تقدير المغيّر حيث ظن حيازته للمقومات دون أن يحسب للموانع حسابا، فساسة مخضرمون ورأس مال من اصحاب الشركات العالمية وعلماء مضطهدون ينتظرون يوم الخلاص من البعث وشعب منهك، فهل في كسب النتيجة من شك؟ ولا يتهمني أحد هنا بالاساءة للعلماء لأني اؤيد العلماء الذين ايدوا هذا التغيير لأسباب معقولة. بل لولا موقف بعض العلماء لأريق ما تبقى من دم العراقيين دون ثمرة أو تم ذلك لصالح حزب البعث. واختيار أهون الشرين هو عين المنطق.

وان ذكرت السادة العلماء هنا بعد مرحلة صدام فالمراد ليس من اختار المنطق منهم وانما اقصد الذين طمعوا في ارث من لا وارث له، أو الذين خسروا رفد البعث فرفعوا من أجله أو من أجل مثيله راية الجهاد ليقحموا الشعب المسكين باسم الدين في خوض اللامعقول مستغلين حسن ظن عامة الناس بهذا الزي المقدس وصدق مشاعرهم وعواطفهم بل واستغلال الدين لغاية في نفس يعقوب لا في سبيل الله. فانا لله وانا اليه راجعون.

اما النقطة الثانية: حال العراق ومصيره بعد مرحلة البعث؟ فهو الموضوع الذي يستحق الوقوف عنده، وتوخي الحذر والدقة في تتبع فروعه المتشابهة المتشابكة، والظروف والملابسات التي رافقت حركة التغيير في الداخل والخارج، كما يتطلب استقراء الفرق التي اجتمعت في هذه الساحة الكبيرة لخوض المباريات المصيرية والتنافس على كأس ذهبي اسمه العراق أغلى جوائز الدنيا. وقد أثبتت الأحداث أن السياسة دين واحد لا يفرق من كان الإمام في تطبيقه.

كان شعب العراق يعيش في ظل حكم سياسي وحشي متعطش للدماء عاشق للمال مغرم بالتسلط على الرقاب تحزنه سعادة شعبه وتسعده تعاسة ملته يثلج صدره أنين المظلومين ويفتح أساريره صراخ المستصرخين، وفي المقابل شعب مضطهد ـ بجميع فئاته ومنهم البعثي من الدرجتين الثالثة والرابعة ـ يائس من الحياة يستغيث الصديق والعدو فلا يغيثه احد ويستنجد بالعربي والعجمي ولا يرحمه منهم راحم، حيران منقطع إلا من روح الله وبلغ به الأمر أن تمنى المنجي كائنا من كان.

ومن الخارج دول متجاورات ومتباعدات التقت مصالح أكثرها ببقاء البعث، وفئات بين صديقة للحاكم الجائر عدوة للشعب، وصديقة للشعب عدوة للحاكم لكنها طامعة متربصة تترقب الفرص.

حاولت الدول الصديقة لصدام حسين الحيلولة دون سقوط حكومته لكنها فشلت، وزحف الغول الأمريكي وبمساندة أقماره من الغرب والعرب وسقط الصنم في ٩/٤ / ٢٠٠٣. فماذا حدث بعد ذلك؟ سقط الصنم حسب تعبيرهم على يد جنود جورج بوش، فتنفس الناس الصعداء واختلط فرح الجماهير بفوضى عارمة لم يشهدها العراق من قبل، وعادت القلوب إلى الصدور بعد بلوغها الحناجر، ولكن ما وقع كان أعظم...!! ترددت شعارات الحرية والديموقراطية في جميع أنحاء العراق، لكن الذين استفادوا من هذه الحرية هم المفسدون من القتلة والسراق في حين يعيش عامة الشعب في قيد قانون لا يطبق إلا على المستضعف لأن الأغنياء والأقوياء وذوي النفوذ باتوا فوق القانون وإن أجرموا، لا يتجرأ جهة أمنية من التقرب منهم ولا يستطيع قاض من قضاة الدولة الحكم عليه لأن ذلك يعني نهايته.

ولئن عادت القلوب في ظل حكومة الحرية والديموقراطية بعد سقوط نظام البعث إلى مواضعها إلا أن العقول في المجتمع العراقي هجرت عروشها وهبطت إلى الصدور والبطون حيث الوساوس والشهوات، فأرهقتها إرهاصات الشعار فدخلت غيبوبة لا يُعلم متى تفيق منها، فلا عاقل في البلاد ولا معقول، وإياك أن تنطق بهذه المقولة جهارا فهي أخطر عاقبة من الهتاف ضد صدام حسين ايام حكومة حزب البعث، وإذا رايتموني لا أمتثل لما أنهى عنه فلأني أصبت أيضاً باللوث الذي أصابت العقول بعد سقوط الصنم، وقد كدت أن أدفع ثمن ذلك قبل أيام بمؤامرة دنيئة بتغطية من بعض المفسدين من رجالات الدولة الذين هم على استعداد لبيع الضمير بلقمة من سماط غني.

وخرجت الأحزاب تتغنى بانتصارها على الطاغوت ثم تزاحمت على الميراث تاركة الشعب والوطن للاقدار، يواجهان المر من الصديق والعدو على حد سواء، أما من جهة العدو فقد استطاع بفضل الحرية من إعداد أدوات الفتك والقتل الجماعي

من صواريخ ومفخخات تحت ذريعة الخلاص من المحتل ليذبح العراقيين بالجملة، في حين يجتمع رموزه في السر مع العدو المحتل بين حين وآخر، ومن جهة أخرى شهر الرقباء أسلحتهم وكواتمهم لقتل بعضهم بعضاً على نصيب من الميراث أو منصب من المناصب، واختلط بذلك الحابل بالنابل ولم يكد المرء يميز بين إرهاب العدو وغدر الصديق، بل تعدى الأمر حدود الساسة لتدخل البطون التي شبعت بعد جوع ساحة الفوضى فيقتل الشقي منهم على الهوى كل من أثار حفيظته من الناس ولو بكلمة، يفعل ذلك دون خوف من سطوة القانون المحابي للأقوياء، والبركة في فصل العشائر المرتكز على حل المعضلات بالمال، والمال لا يمنع الغني من ارتكاب جرمه لا سيما بعد أن استغنى الكثرون بين عشية وضحاها، فمال الشعب غنيمة سهلة المنال وكثير ممن كان يشتكي من جوع الحصار ووحش الطاوة بات اليوم بفضل الربيع يتحدث عن المليارات، ولو أحصينا القتلى في زمن الحرية والديموقراطية لفاق العدد ما قتلهم البعث طيلة حكمه الجائر هذا من جهة الأمن الذي انتظره العراقي بعد إرهاب البعث .

أما ما انتظره عامة الناس من الخدمات الإنسانية والتخلص من عذاب الروتين بعد الربيع العراقي فحدث ولا حرج، والوعود تترى من حكامهم عش يا حمار سوف يأتيك الربيع، وما زال ربيع الشعب العراقي معلق في فلك الوعود ولم يعد عليهم رغم مرور عشر سنوات على ربيع الحواسم. والمصير المجهول في انتظار المستضعف المسكين الذي لا مال له يغنيه ولا ناصر يؤويه ولا قانون يحميه.

والواقع شاهد لمن ألقى السمع وهو بصير لا يحتاج معه إلى برهان، واقع يفقد العاقل فيه صوابه بعد ضياع الموازين وحكومة المتناقضات، فالكاذب مقبول القول دون حاجة إلى دليل، والصادق لا يقبل صدقه إلا بدليل هذا ما يحكم به القضاء فاقتل واسرق بحذاقة وما عليك إلا أن تنكر عند القاضي فلا أحد يبحث عن الحقيقة. فكيف لا يفقد عقله من يعيش أجواء المتناقضات، وكيف لا يهذر من فرغ محيط عقله من المعقولات؟

من يعقل أن ينعت مجتمع قبلي مثل المجتمع العراقي بالديموقراطي؟

ومن يعقل أن تصبح حكومة ملوك الطوائف المطبق عمليا في العراق هي الحكومة المثالية التي ينتظر منها مراعاة العدل والمساواة والديموقراطية؟ فالحكومة

الرسمية حكومة، والعشائر حكومة مستقلة، والأحزاب كل منها حكومة، والموظف في دائرة الدولة حكومة، والأشقياء من ذوي المال والعضلات حكومة، والكل يحكمون الشياه المسكينة، وويل لشاة بين أسد وذئب وثعلب.

ومن يمكنه الصبر وهو يرى الرفاق ورجال الأمن والاستخبارات يتقلدون مناصب أعلى مما كانوا يتقلدون أيام البعث ويحضون بأولوية في الرعاية حالهم حال رجالات الأحزاب التي ادعت معارضتها للبعث بينما يسحق ضحايا البعث مرة أخرى في ظل حكومة الربيع؟

ومن يحتمل أن يرى الأحزاب التي استنجدت بالشعب في نضالها للخلاص من نظام حزب البعث وادعت تذمرها من أساليبه وهي تسلك نفس الأساليب بعد استلامها زمام الأمر بقدرة قادر؟

ومن يتوقع أن يرى السلطة والقضاء في خدمة الأقوياء والأغنياء دون العدالة التي يتغنى بها الجميع ليبقى المستضعف دائما هو المدان المسحوق؟ الأقوياء محترمون لقوتهم والضعفاء محقّرون بضعفهم، أمير يسرق مليارات فلا يحاسب، وفقير يقطع في ربع دينار، والقاتل يخرج من محاكمنا بالبراءة ويكون الضحية هو المدان؟ فعش مجنونا فعقلك في ساحة اللا عقل قاتلك ولا تصدق حكيم فحكيمك هو الآخر مجنون.

فهرس

١ـ الاهداء ..... ص ٣
٢ـ المقدمة ..... ص ٥
٣ـ العراق ومخلفات الاستعمار ..... ص ٧
٤ـ الشيوعيون والقوميون ..... ص ١٤
٥ـ الانقلاب الأبيض ..... ص ١٦
٦ـ ظهور البعث ..... ص ٢١
٧ـ عناصر الحزب ورموزه ..... ص ٢٥
٨ ـ منهج البعث ..... ص ٢٨
٩ـ اهداف البعث ـ الاهداف المعلنة ..... ص ٣١
١٠ـ الاهداف الغير المعلنة ..... ص ٣٤
١١ـ الغاية تبرر الوسيلة ..... ص ٤١
١٢ـ التغاضي العالمي عن الجرائم ..... ص ٤٥
١٣ـ الحرب البعثية الكردية ..... ص ٥٣
١٤ـ الحرب البعثية الشيعية ..... ص ٥٩
١٥ـ الحرب البعثية الإيرانية ..... ص ٦٨
١٦ـ الحرب البعثية الكويتية ..... ص ٨٧
١٧ـ حرب البعث ضد الشعب (الانتفاضة) ..... ص ٩٦
١٨ـ الهجوم البعثي المضاد ومعارك الدفاع ..... ص ١١٢
١٨ـ إضافة الطبعة الثانية ـ مرحلة ما بعد البعث ـ ..... ص ١٢٩
١٨ـ الفهرس ..... ص ١٤١

دفتر فرهنگ مقاومت

دانشگاه آزاد اسلامی